حياة شرارة

الثائرة الصامتة

إعداد وتقديم
خالد حسين سلطان

دار الخالدي للطباعة والنشر / بغداد
الطبعة الثانية / ٢٠١٦

الكتاب : حياة شرارة الثائرة الصامتة
إعداد وتقديم : خالد حسين سلطان
الناشر : دار الخالدي للطباعة والنشر
العراق / بغداد

الطبعة الثانية
٢٠١٦
١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة : للسيد خالد حسين سلطان
Email : kh_sultan1960@yahoo.com
Mob : 07901264059 , 07702539432

الإهداء

الى كل عراقي وطني
له موقف حقيقي مناهض للاحتلال البغيض
لعراقنا الحبيب
أهدي جهدي المتواضع هذا

خالد حسين سلطان

الفقيدة د. حياة شرارة

١٩٣٥ ـ ١٩٩٧

المقدمة

في الأول من آب ١٩٩٧ انتقلت الى جوار ربها الفقيدة د. حياة شرارة أستاذة الأدب الروسي في جامعة بغداد / كلية الآداب (ومن ثم كلية اللغات) في حادث انتحار مأساوي مع ابنتها الشابة مها، والذي كان صدمة شنيعة لكل من عرف الفقيدة او سمع عنها وقرأ لها وكذلك في الأوساط الأدبية والتدريسية وطلابها، وعلمت في حينها عن الوفاة من خلال اللافتة التي علقها طلابها في واجهة مجمع الكليات في باب المعظم، وأثارت تلك الحادثة الكثير من اللغط والتساؤلات ان كانت انتحار فعلا أم هنالك يد خفية للنظام الحاكم في ذلك، وعلى كل حال فالحصيلة كانت ان النظام كان وراء الانتحار سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وبعد صدور رواية " إذا الأيام أغسقت " للفقيدة وبمقدمة رائعة بقلم السيدة بلقيس شرارة، أشارت السيدة بلقيس في تلك المقدمة وكتاباتها اللاحقة عن الفقيدة، ان الحادثة كانت انتحار وبدون أي تفاصيل حيث كتبت في الجزء الأخير من تلك المقدمة " . . . ولم تعد ترى بصيصا من النور أو الأمل. أحست أنها أمام منعطف الهاوية عندما فقدت الحياة مغزاها وهدفها، ولم يبق أمامها إلا الهرب والتخلص منها وإطفاء جذوتها. فقد وصلت الى الخطوة الأخيرة في مفترق الطريق الحاسم، الفاصل بين الحياة والموت، ووجدت راحة في إنهاء مسيرة الحياة والتخلص منها . " ومع هذا كانت بعض الكتابات التي نشرت حول الفقيدة وخصوصا بعد الاحتلال وسقوط النظام السابق تشير الى إنها كانت عملية تصفية من قبل أجهزة النظام الأمنية، فالبعض اعتبرها عملية إعدام وأدرج اسم الفقيدة وزوجها الطبيب محمد صالح سميسم ضمن قوائم الشهداء الذين أعدمهم النظام والآخر تساءل عن الذي أشعل النار في الفقيدة وابنتيها وهنالك من كتب عن استنشاقها لغاز سام. لذلك كان الأجدر بالسيدة بلقيس أن تخوض في بعض تفاصيل

الحادث وخصـــوصاً ان زينب الابنة الثانية للفقيدة قد نجت من الحادث وبالتأكيد لديها معلومات دقيقة عن الحادث رغم قسوتها .
وعلى كل حال فان تلك النهاية المأساوية ليست بالغريبة في أوساط المبدعين والعلماء وغيرهم من ذوي النفوس البشرية السامية عند تعرضهم للاستبداد واقتناعهم بعدم قابليتهم تقديم شيء في مجال اختصاصهم ضمن الظروف المحيطة بهم، رغم تناقض تلك النهاية مع التشريعات السماوية. ويبدوا ان الفقيدة من خلال دراستها وأبحاثها في الأدب الروسي تأثرت بالنهاية المفجعة للشاعر والأديب الروسي مایاكوفسكي (١٨٩٣ ـ ١٩٣٠) الذي أطلق النار على قلبه وهو في ريعان شبابه وعطاءه تاركاً وصيته التي جاء فيها " الى الجميع ! أنا أموت، لا تتهموا أحداً، ودعكم من الأقاويل . . . " فنقشت تلك النهاية أثرها في ذاكرة حياة كورقة قد تحتاجها يوماً ما، وفعلا لجأت الى تلك الورقة لتعلن ثورتها الصامتة وتنهي حياتها لتكون تلك النهاية صفعة في وجه الطاغية المستبد .
تأثرت كثيراً عند قراءة تلك اللافتة المشئومة التي تعلن عن وفاة الفقيدة، وبعد الاحتلال قرأت روايتها " إذا الأيام أغسقت " وتعاطفت مع أحداثها ومعاناة الفقيدة، لذلك أخذت من عنوانها لازمة لي أكررها مع كل ضائقة أمر بها وما أكثرها في زمن الاحتلال البغيض وما رافقه من أحداث وانحرافات غير متوقعة، حتى أخذ أطفالي بسؤالي عن معنى هذا القول " إذا الأيام أغسقت " فوضحته لهم وتكلمت عن الفقيدة وزوجها وابنتيها وما حصل لهم على يد النظام السابق .
لم التقي بالفقيدة وأنا من جيل طلابها بل كانت هي وزوجها المرحوم محمد صالح سميسم أصدقاء ورفاق لوالدي المرحوم حسين سلطان، وكان الطبيب محمد سميسم طبيب العائلة وأصدقاءها وأقاربها يقدم لهم المشورة والمساعدة في الحالات المرضية سواء في اختصاصه او غير ذلك وخصوصاً خلال فترة عمله في مستشفى الطوارئ في بغداد حيث كنت أحد مراجعيه، وفاءاً لتلك الصـــــداقة والنبل الإنساني الذي تحمله

الفقيدة وزوجها والإهمال المقصود من المؤسسات الأكاديمية التي عملت فيها وكذلك رفاقها في فترة عملها الحزبي، عملت على جمع ما أحصل عليه من كتابات ومقالات عن الفقيدة ودورها الأدبي والسياسي على أمل نشره كملحق في احدي المجلات الأدبية أو على شكل كتاب مستقل ليكون مرجعاً متواضعاً للمهتمين وبالتأكيد انه لا يحوي إلا جزء مما كتب عن الفقيدة، ولكن هذا ما تمكنت عليه ضمن ظروف الاحتلال البغيض .

عذراً لكل من نشرت مساهمته في كتابنا هذا دون الحصول على موافقته وشفيعي في هذا الاعتذار إننا نعمل في نفس الاتجاه ألا وهو إنصاف إنسانة مبدعة ظلمت في حياتها وبعد مماتها، وخصوصاً كتابات السيدة بلقيس شرارة حيث لم أجد أروع من السيرة التي كتبتها عن الفقيدة كمقدمة لروايتها " إذا الأيام أغسقت ". لم يصل الى العراق إلا نسخ معدودة من تلك الرواية خلال العهد المباد بالإضافة الى بعض النسخ التي تسربت للقراء بسرية وحذر تام ضمن ما يسمى بثقافة الاستنساخ الشائعة في شارع المتنبي، ومع هذا لا تتوفر تلك الرواية الآن في المكتبات ولا يمكن الحصول عليها بيسر لذلك أدرجت مقدمتها الرائعة كسيرة للفقيدة حياة شرارة وهي في الحقيقة تمثل موجزاً سياسياً وأدبياً لتاريخ العراق الحديث .

ختاماً أتمنى ان أكون وفقت في إنصاف إنسانة ومناضلة ومبدعة

المجد والخلود للفقيدة حياة شرارة

خالد حسين سلطان

آذار ٢٠٠٩

سيرة حياة الفقيدة " حياة شرارة "

بقلم : بلقيس شرارة*

مدينة النجف، مدينة غريبة لا تشبه مدن العالم. ربما لا يوجد على شاكلتها إلا مدينة ((بناريس)) في الهند، التي تعيش وتحيا من الأموات.

فالنجف مدينتان، مدينة الموتى ومدينة الأحياء، ويتلاشى الفاصل بينهما أحياناً، ويصبح متشابكاً ومتلاحماً. فمدينة الموتى لا تخلو من الأحياء القادمين من مدينة الأحياء لاستمرار طقوس الدفن. إذ تأتي اليها جنائز الموتى من كل حَدَبٍ وصوبٍ في العالم الإسلامي، وتتعالى الأصوات التي يشوبها الألم والأسى على فقدان الأقرباء والأعزاء، وتضفي أشباح الموتى عليها جواً من الهلع المكبوت والسكينة القدرية.

ومدينة الأحياء لا تخلو من جنائز الموتى التي تقام لها الشعائر في جامع الامام على ليل نهار، وتتقاطر الجنائز صفاً صفاً مرفوعة على أكتاف الأحياء في صحن الجامع بانتظار إقامة الصلاة عليها. فتماس الأحياء والموتى متواصل، حيث تمتزج صلاة الجنازة بأصوات الصبية وضجيجهم، يلعبون في زاوية صحن الجامع الواسع، وبأحاديث النسوة المتلفعات بعباءاتهن حول سماور الشاي. والجامع هو المنفذ والمتنفس الوحيد للصبية والنساء الهاربات من عزلة الدار القاتمة وأزقة المدينة الملتوية المظلمة التي لا ترى أشعة الشمس.

ومدينة الأحياء ملتفة بهالة أسطورية، فهي مطمح أنظار المسلمين من الشيعة، تعج أروقة جوامعها التاريخية بالطلبة القادمين من جنوب لبنان وإيران والهند لانتهال العلوم العربية والإسلامية، يستمعون إليها على شكل حلقات دراسية تحت إرشاد ((علمائها الدينيين)) .

وبالرغم من الجو الديني المرادف لمدينة النجف ، هنالك جو آخر ازدهرت فيه نهضة ثقافية واسعة، إذ صدرت عدة صحف و مجلات كان لها دور مهم في الدعوة للإصـــــــلاح الاجتماعي، كـ ((الهاتف

)) و((الحضارة)) و((الغري)) و((البيان))، وبرز فيها كتاب وشعراء أغنوا تراث العراق الأدبي مثل محمد مهدي الجواهري وعلي الشرقي وجعفر الخليلي وسعد صالح، ومن الجالية اللبنانية ظهر حسين مروة ومحمد شرارة .

وفي هذا الجو الغريب الذي يكتنف المدينة ولدت حياة عام ١٩٣٥ في حي المدينة القديم .

مّرت والدتي بمعاناة شديدة، عندما ولدت حياة بعد بنتين، وجاء أهل النجف لتعزية والدتي بولادة بنت ثالثة. كان أهل النجف يـــــعتبرونها ((ثالثة الأثافي)) كناية عن المصائب، وانزعج والدي جداً من زيارات الناس وكلامهم، مما دعاه الى قضاء معظم وقته خارج الدار لتجنب رؤيتهم .

كانت نظرة المجتمع التقليدية للأنثى عندما ولدت حياة، نظرة غير محترمة، وغير مساوية للذكر. ولم تفتأ تلك المجتمعات تتدخل في الأمور الخاصة والشخصية للفرد كأن تدخلها حق مطلق من حقوقها. فتوالت الاقتراحات من كل جانب بتزويج والدي امرأة ثانية تلد له ولداً، وحُمّلت والدتي المسؤولية عن ولادة بنت ثالثة ولم تقع أية مسؤولية على الأب، للجهل المطبق بـ ((بايولوجية الإنجاب)) .

وكتب والدنا، محمد شرارة، مقالة في ((الهاتف)) بعنوان ((سهيل ام خلاف آخر)) يدور حول هذا الموضوع، وذكرت حياة رسالة لها عن ذلك عام ١٩٧٩ :

((يقول أن مريم استُقبلت بالبرود لأنها بنت رغم أنها أول طفل لدينا، أما بلقيس فلم تستقبل بالبرود رغم أنها الثانية وكان الأحرى ان يخلق ولادة طفلة ثانية مثل هذا الموقف. أما أنا فكنت هادئة صامتة في طبعي بعكس بلقيس وكما لو كنت اعرف عدم الرغبة بمجيئي، وكانوا يسموني (ثالثة الأثافي))).

ترك والدي النجف بعد ولادة حياة بعام، والتـــــــحق بثانوية الناصرية كمدرس للغة العربية، وشعر ((أن الحياة الجديدة مضنية في جانبها

العملي والروحي، تستنزف معظم وقته، وشعر بالغربة والنفور من نظرة المعلمين السطحية))١.

سافرنا ذلك الصيف الى لبنان. وقضينا عاماً كاملاً مع والدتي، حيث ولدت ولداً، فتعالت التغاريد ووزّعت علب الحلوى، وانهالت التهاني بالطفل الجديد على والدي من جميع أعضاء الأسرتين، آل الزين وآل شرارة، كأن والدي هو المسؤول الوحيد عن مجيء هذا المولود، واجتمع أعضاء أسرة شرارة نساءً ورجالاً، قاضين سهرتهم في البحث عن إيجاد أسم لائق للمولود الجديد، واستعانوا بالقواميس العربية، وبعد أسبوعين من البحث عن أسم يليق بمنزلة المولود الجديد، اختلفوا في تسميته : أحدهم يريد عدنان وآخر قحطان، وسرت النشوة والفرح عندما وافق الجميع على اقتراح جدي في تسميته إبراهيم، وتخلص والدي ووالدتي من التســـمية الشائنة التي لصقت بهما ((أبو البنات، وأم البنات)). ما هو شعور وردود فعل البنات الصغيرات تجاه هذا الاهتمام بالمولود الجديد وبالأخص الصغيرة حياة؟ إن أهمية الذكر وتعظيمه مشكلة اجتماعية، جابهتها المجتمعات وآمنت بها منذ ظهور الزراعة، فنشأ تفضيل الذكر على الأنثى لأنه يؤمن باستمرار اسم العائلة واستيراث الأرض، ولا زالت الأنثى تعاني من وطأة هذا الوضع .

ولكن والدي كان يؤمن بالمساواة التامة بين البنين والبنات، ولم يدع مجالاً لسيطرة عقول مؤمنة بمفاهيم قروسطية، من التدخل في توجيه أبنائه وبناته وتربيتهم .

قبل عودتنا الى العراق بأسابيع، أصيبت حياة بمرض التيفوئيد، واضطرت والدتي لتركها في لبنان مع جدتي .

برزت أمامي عيناها الواسعتان، بنظرات مملوءة بالتوسل بوالدتها، وكأنها تقول : ماما لا تتركيني وتذهــبين بدوني. لم تكن تستطيع التعبير بالكلام، فلم تبلغ بعد العامين من العمر، عزلت في غرفة لا يقترب منها أحد إلا والدتي، والآن ستتركها في هذه الغرفة وحدها، ظلت عيناها الواسعتان الغائرتان من شدة المرض، تلاحقنا ونحن نتجه نحو السيارة .

مر عامان ولم يتذكر أحد منا حياة غير والدتي، التي كانت تغرورق عيناها بالدموع عندما تتكلم عنها. وعندما عدنا الى لبنان، لم تتعرف حياة على العائلة، ونسيت حتى والدتها، وعندما حاولت والدتي تقبيلها أسرعت وتمسكت برداء جدتي التي أصبحت لها الأم والأب والأخت .

تغيرت ملامح حياة عما تركناها منذ عامين، ببريق عينيها الواسعتين، وشعرها الطويل الكستنائي اللون، وحمرة الصحة التي كست وجنتيها، وكانت طليقة الكلام باللهجة اللبنانية .

عادت معنا بعد ان قضينا الصيف في ربوع لبنان، والتحقت بالروضة بمدينة الحلة. لم تكن تحب الذهاب الى الروضة، فقد رفضت الذهاب إليها مرات عديدة. كانت تعيد نفس الجملة : الأطفال لا يتكلمون اللهجة التي تتكلمها، وتصّر عليهم أن يتكلموا لهجتها .

وأظهرت حياة موهبة أدبية منذ نعومة أظفارها، وأحبت الشعر الحديث وحفظته عن ظهر قلب، وكان لوالدي أثر كبير في ذلك. إذ كان يتلو الشعر ويترنم به، وأصبح ذلك جزءاً من حياتنا اليومية، ورسخ في ذاكرتنا ما كان يترنم به من قصائد. وبالإضافة الى هذا كانت أحاديثه الاعتيادية معنا باللغة الفصحى مما أغنى استيعابنا للغة العربية .

نشأت حياة وترعرعت في هذا الجو الأدبي، وأظهرت موهبة خاصة عندما كانت تقارع والدي بحفظها دواوين شعر كاملة أثناء المساجلة الشعرية التي كانت تشترك بها العائلة .

عندما انتقلنا الى بغداد في منتصف الأربعينات، أصبح بيتنا منتدى وملتقى لكثير من الشعراء والأدباء والمفكرين، وكان يجمعهم في تلك اللقاءات حبهم للأدب والشعر، بالرغم من التباين والاخـتلاف في آرائهم السياسية. واتخذت تلك اللقاءات طابعاً أسبوعياً .

كانت حياة تجلس دائماً في زاوية من غرفة الضيوف وبين يديها الصغيرتين دفتر تسجّل فيه ما تستمع اليه في تلك اللقاءات الشعرية من قصائد جديدة، ولم نكن ندري أن تلك اللقاءات كانت تمثل بداية (نشأة الشعر الحر). كان الجدل يدور حول تجديد الشعر وجعله حراً بلا قافية.

كان الشعراء يقرأون آخر ما نظموه من القصائد، وكانت تلك اللقاءات الأسبوعية هي البذرة الأولى في توجيه حياة أدبياً وسياسياً .
كان بدر شاكر السباب ولميعة عباس عمارة من المواظبين أسبوعياً على تلك اللقاءات. وشارك بتلك اللقاءات محمد مهدي الجواهري وحسين مروة ونازك الملائكة وأكرم الوتري وبلند الحيدري، ومحسن الأمين. كانت نازك تزورنا معظم الوقت بصحبة والدها صادق الملائكة وأحياناً مع أخيها نزار .
كنا نسكن حي سبع قصور، وكانت دارنا مطلة على نهر دجلة، تحيطها حديقة واسعة، بأشجار قديمة باسقة، وكان المشي على شاطئ دجلة صيفاً من وسائل اللهو والمتعة، فنذرع الشارع رواحاً ومجيئاً، بخطى وئيدة، نستمع خلالها الى الأحاديث المتنوعة الشيقة التي لا تقتصر على الأدب والشعر، وإنما تشتمل على أحداث الساعة وما كان يدور في البلد من مشاكل اجتماعية وسياسية .
وقد أثر علينا نحن البنات بصورة خاصة كل من بدر ولميعة ونازك أكثر من الآخرين، لمعرفتنا بهم عن قرب .
كان بدر ثائراً على الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وبالرغم من انتمائه الى عائلة ميسورة، قرر تركها عندما أصبح عضواً بالحزب الشيوعي. وتجلت تلك النزعة الثورية في بعض القصائد التي نظمها في تلك الفترة .
كان نحيل الجسد، أسمر اللون، له أذنان كبيرتان، بارزتان أكثر عن المألوف، مع أنف كبير، وعينين صغيرتين، وشفتين بارزتين، لنتوء في أسنانه. فليس هنالك أي شيئ جميل في محياه. كان ذا حـــــس مرهف، يتنازعه القلق الدائم، يحب ويعشق كل ما هو جميل حوله. فالطبيعة الجميلة والمرأة الحسناء، كان لهما دور كبير، وقد عانى بدر من الإحباط المتواصل من المرأة. وكثيراً ما كان يقع في غرام امرأة حالماً بتعرّف عليها، ولكم نظم القصائد بمثل هاتيك النساء، وكم ذمهن بقصائد أخرى عندما لا يجد استجابة منهن. وكان خجولاً الى درجة مفرطة .

إن معرفته وإلمامه الواسع بالأدب العربي والانكليزي، ميّزه عن شعراء عصره، الذين لا يملكون في معظمهم هذه المعرفة، لذا جاءت صوره الشعرية منوّعة وعميقة، حية تنبض بالحياة. كان بدر مؤمناً بخلاص الإنسانية المعّذبة، وأثرت به تجربته السياسية والتزامه بالاشتراكية، لينتهي شاعراً متمرداً، حرّ التفكير، لم يتقيد بقصائده بالمفاهيم السائدة في صياغتها، وأصبح من قادة التجديد في الشعر الحديث في العالم العربي .
كان يميل في تلك الفترة الى الشاعرة لميعة عباس عمارة، زميلته في دار المعلمين العالية. وقد نظم فيها عدداً من القصائد.
كان مفتوناً بلميعة ومتيماً بحبها، وما كان يقرؤه من قصائد في تلك اللقاءات، كان موجهاً لها، وكانت هي تعرف كيف تثير عواطفه حين ترمقه بنظراتها الساحرة، التي تخفي عشرات المعاني. كانت علاقة بدر بلميعة علاقة حب مفضوحة، بعيدة عن التكتم .
اما لميعة فكانت تجمع ذكاء الروح وجمال الجسد. طويلة القامة، نحيفة، ذات عينين جميلتين واسعتين سوداوين، وشعر فاحم. وبالرغم من أنها كانت ترتدي دائماً فستاناً أسود اللون، كانت تتألق نضارةً وحيويةً وشباباً. كانت نقيض بدر، فهي محدثة بارعة، ذات نكتة لاذعة. وعندما كانت تلقي قصيدة من قصائدها، فإنها تتكلم لغة الجسد، فتتغنج وتتمايل وتذوب مع الكلمات ومعانيها التي تصدر من بين شفتيها، فيرتفع صوتها تارة وينخفض تارة أخرى، فكانت تشرك كل حاسة من حواسها عند الإلقاء. جمعت بشخصيتها العذبة وأســـــلوبها الجذاب في قراءة الشعر سحراً كان يخيم على الحاضرين في تلك اللقاءات. كانت قصائد لميعة قصيرة ورقيقة في مضمونها، وكان الحب هو الموضوع الرئيسي لتلك القصائد .
اما نازك فكانت تختلف تماماً عن لميعة، لم تكن جميلة أو جذابة كلميعة، بل كانت قصيرة القامة، مملوءة الجسد، بسيطة المظهر، قليلة الكلام، وإن تكلمت فبصوت هادئ لا ترفعه إلا عندما تقرأ إحدى قصائدها. كان الحزن يغلب على محياها، وكانت نظرتها للحياة نظرة مأساوية،

وانعكست تلك النظرة في قصائدها. ولكنها كانت واسعة الاطلاع، مرهفة الإحساس، ذات ثقافة أدبية عميقة، وهي تتقن اللغة الانكليزية والعربية واللاتينية والفرنسية .

حفظت حياة معظم شعر بدر ولميعة ونازك، وكانت تترنم بقصائدهم وهي لم تبلغ بعد سن الثانية عشرة .

بالإضافة الى اللقاءات الشعرية والأدبية، ثمة لقاءات يؤمها خليط آخر من المثقفين والمفكرين اليساريين، كالشاعر كاظم السماوي وجاسم الرجب وأساتذة من مدرسة شماس ودار المعلمين الريفية .

كان عام ١٩٤٨، عاماً مضطرباً، مملوءاً بالمآسي، وقد شمل الغليان معظم البلدان العربية، لخسارتهم فلسطين في حربهم مع اليهود. وكانت تلك الخسارة بعد ولادة دولة إسرائيل، بقرار من هيئة الأمم المتحدة، بمثابة كارثة على العرب، ولم يكن الفكر العربي متهيئاً لها يومذاك، وما زالت أصداؤها سارية بعد خمسين عاماً .

خرجت المظاهرات في شوارع بغداد، تطالب بسقوط الصهيونية، وشملت جميع المدارس في العاصمة، بما فيها المدارس المتوسطة والثانوية، ولكن لم يسمح للمدارس الابتدائية بالمشاركة فيها، وتألمت حياة عندما عدنا من المظاهرة المنظمة من قبل الحكومة نَقصّ عليها ما حدث، وتمنيت لو سُمح لمدرستها الابتدائية بالمشاركة أيضاً .

كان ذلك العام، عام ١٩٤٨، من الأعوام الصاخبة التي مـرّت في تاريخ العراق الحديث، فقد وُقّعت (معاهدة بورتسموث)، من قبل السلطة، التي كان رئيس وزرائها صالح جبر، واعترضت الأحزاب المعارضة على تلك المعاهدة، واعتبرتها جائرة ومجحفة بحق العراق، وشجبتها .

انتقلت المقاومة لتلك المعاهدة الى الشارع. وبدأت المظاهرات التي تخللتها الخطابات الحماسية والقصائد الملتهبة والهتافات الرنانة، وتزايدت المقاومة يوماً بعد يوم، حتى أمرت الشرطة بفتح النار على المتظاهرين، فسقط خلالها عدد من القتلى قرب جسر (مود) عندما كان المتظاهرون متجهين نحو السفارة البريطانية، والتهب الوضع

عندما علم أن من بين القتلى الذين سقطوا مضرجين بدمائهم جعفر الجواهري، شقيق الشاعر المشهور محمد مهدي الجواهري، فنظم في تأبينه قصيدته المشهورة التي ترددت كنشيد شعبي على فم كل عراقي ومن بينهم حياة، ومطلعها :

أتعلم أم أنت لا تعلم بأن جراح الضحايا فمُ

تراجعت السلطة عندئذ عن إبرام المعاهدة، وسقطت حكومة صالح. وهدأ الشارع، وتحول الى لافتات يرفعها المشيّعون للضحايا الذين سقطوا برصاص السلطة .

وأطل عام ١٩٤٩، وصادفت الذكرى الأولى للوثبة التي أسقطت معاهدة (بورتسموث) فأعلنت الأحكام العرفية، وبدأت حملة اعتقالات واسعة في العراق، لم يشهد لهل مثيلاً منذ حركة رشيد عالي الكيلاني. فحُلت الأحزاب وعطلت الصحف عن الصدور، واعتقل عدد كبير من مفكري وسياسي العراق، وكان والدي وعمي مرتضى ممن شملهم الاعتقال .

كنا نسكن في حي الكرادة الشرقية، في دارنا المطلة على نهر دجلة. عندما داهمت الشرطة دارنا ليلاً، وفتشت جميع الغرف، ونثرت الكتب وأوراق والدي، التي غطت أرض الغرفة، وصودر عدد كبير من كتبه وأوراقه، وشملت المصادرة حتى الصور التي التقطت لنا ولرفيقاتنا في المدرسة أثناء تشييع الذين سقطوا خـــــلال المظاهرات. وانقلب عالمنا المشرق رأساً على عقب. وانطفأت جذوته وأصبح عالماً مثقلاً بالهموم، لا ندري ما يحمل في طياته من مفاجئات .

اختفى والدي وعمي مرتضى مع الكتب والأوراق التي صودرت، واعتقلا في معتقل ((أبو غريب)). كان المعتقل يزخر بالمفكرين اليساريين، من أمثال الشاعر بدر شاكر السياب والشاعر محمد مهدي الجواهري، مع رجال الأحزاب المعارضة ورؤسائها، وطلبة الكليات .

حزنا على والدي وعمي، وشعرنا بالفراغ الذي أحدثه اعتقالهما.

كانت والدتي تبعث لهما يومياً الطعام بـ ((زنبيل)) ـ وهي سلة مصنوعة من خوص النخيل ـ مغطى بمنديل أبيض، ويعاد الزنبيل

بالمنديل الأبيض الذي يغطي ملابس والدي وعمي لغسلها، كانت والدتي تفتشها بحثاً عن قصاصات الورق التي تعطينا نزراً ضئيلاً عن حالتهما. وانطبعت حالة والدي وعمي في ذاكرة حـــــياة وأبرزتها في روايتها ((وميض برق بعيد)) التي لم تنشر بعد :

((حدثتني عن فزعها عندما طرق الباب في الساعة الثانية ليلاً، وكان الجميع يغطون في نوم عميق، فاضطرت هي الى النهوض من سريرها وفتحه، متصورة أن أحد الجيران قد وقع له مكروه، وأتى يطلب مساعدتهم. غير أنها فوجئت بشرطيين يقفان أمامها ويسألناها عن أخـيها [أحمد] طالبين منها ان تناديه. ارتبكت ولم تعرف ماذا تفعل، وظلت جامدة في مكانها تتطلع إليهما بذهول حتى طلبا منها بصوت عال صارم أن تذهب وتستدعيه. أبقت الباب مفتوحاً ومشت وكأنها ترى كابوساً في نومها. دخلت غرفة [أحمد] وأيقظته بصوت مرتجف وأخبرته بوجود الشرطيين في الخارج. فزّ من فراشه في الحال وبقفزة واحدة أصبح عند خزانة الملابس وأخذ يرتدي ثيابه على عجل . . .

أيقظت في تلك الأثناء جميع أفراد عائلتها ما عدا أمها التي استيقظت من تلقاء نفسها على أصوات الضوضاء والحركة غير الاعتيادية فيما حولها. تعالى عـــويل أمه وأخواته وشهقاتهم، وبان الوجوم على وجوه أخوانه. بقيت هند مع أبيها رابطة الجأش، وخرجا معاً الى الشارع، ووقفا يراقبان [أحمد] وهو يسير وسط الشرطيين، اللذين وضعا قيداً حديدياً في يديه، حتى توارى بعيداً مع معتقيليه وتحولوا الى أطياف تشق سكينة الليل بوقع أصوات أحذيتهم الثقيلة. كانت تلك الأصوات هي الدليل الوحيد على حقيقة وجودهم بعدما تحولت هيئاتهم الداكنة الى جزء من أثير ذلك الليل المظلم وتلاشوا في جوفه تماماً عندما انعطفوا الى جهة اليمين واختفوا من مجال الرؤية، خفتت أصوات أحذيتهم واندمجت في همهمات الليل المبهمة. بقيت هي وأبوها وحدهما في الشارع لا يصدقان ما حدث ويتصوراه جزءاً من غموض الظلام وأسراره

المحيطة بهما، ثم دخلا البيت وأغلقا الباب وعّبر وجههما عن ألم أخرس عظيم)).٢

توقفت اللقاءات الأدبية الأسبوعية، وذلك لأن عدداً من الذين كانوا يلتقون في دارنا تعرضوا الى قسط من الاضطهاد. فقد أسقطت السلطة الجنسية العراقية عن حسين مروة وعائلته، كانت تلك ضربة قوية سددت لعائلتنا وشعرنا بالخسارة بإسقاط جنسية آل مروة، وكأن عضواً مهماً بُتر من جسد عائلتنا، إذ كنا عائلة واحدة، فإن غضبت العائلة على أحد أبنائها، كانت العائلة الأخرى تحتضنه .

كان الشاعر محمد مهدي الجواهري يتردد على دارنا بعد أن أطلق سراحه من المعتقل، وزارنا ذات ليلة، قرأ لنا قصيدة عن فتاة فرنسية اسمها ((أنيت)) كتبها على ورق لف السكائر الخفيف عندما كان معتقلاً في سجن أبو غريب. وللجواهري أسلوبه الخاص في قراءة الشعر، كان يعيد البيت الواحد ببطء مرتين قبل أن ينتقل الى البيت الثاني، وكانت حياة بدورها قد حفظت البيت فتعيده معه. وقد كتبت عن نفســـها تقول ((كنت أحفظ القصائد التي تلقى في الندوة بشغف وسرعة، ولذلك استطعت أن أتذكر بعض أشعار السياب التي لم تنشر، والقصائد التي غيّر عناوينها أو الحــادثة والسنة التي نظمت بها)).٣

أضطر والدي بعد أن خسر وظيفته، الى مشاركة أحد الأصدقاء في فتح مخزن، وكان نوع العمل شاقاً على والدي وهو غير معتاد عليه، واستغرق معظم وقته، كان مرهقاً جسدياً وفكرياً، يخرج من الصباح الباكر ولا يعود قبل العاشرة ليلاً. تغيرت أحاديثه عن الأدب والسياسة الى أحاديث غريبة عنه تماماً. كاكتشاف أسرار ترويب اللبن ونجاح تلك العملية التي تستغرق طول الليل، ليعرف في الصباح مدى نجاحها. بعد عام من العمل المتواصل المضني ترك المخزن، وخسر حتى الإكرامية التي حصل عليها بعد فصله من الوظيفة .

ولم تقتصر المعاناة على والدي وإنما شملت جميع أعضاء الأسرة بمن فيهم والدتي، التي لم تكن مقتنعة وراضية عن اتجاه والدي السياسي .

كانت والدتي جميلة الوجه، مربوعة القامة، تميل الى البدانة، بسيطة في نظرتها للأمور، متدينة، تقوم بفروض الصلاة والصوم، مستقيمة الأخلاق، مخلصة في أداء واجباتها العائلية لدرجة إنكار الذات، ربّت جميع أولادها على الصدق والتضحية وتحمل المسؤولية منذ نعومة أظافرها، ظلت تتكلم اللهجة اللبنانية، ولم تستطيع تعلم اللهجة العراقية طول حياتها. وبالرغم من الفجوة الفكرية العميقة بين والدي ووالدتي منذ زواجهما ومعارضتها للعمل السياسي الذي انخرط فيه أبي، فقد وجدت نفسها مضطرة في كثير من الأحيان لرهن مجوهراتها أو بيع قطعة أرض من الأراضي التي تملكها في لبنان، لكي تستطيع إعالة العائلة بالطريقة التي تعهدها .

أما عمي ((مرتضى)) فقد اشتغل محرراً ليلاً في احدى الصحف المحلية، ليتمم دراسته في كلية الحقوق صباحاً. كان لا يعود قبل منتصف الليل، مرهقاً منهكاً من عمله المتعب، ولم يعد ذلك العم المرح الذي يقضي جزءاً من وقته الثمين معنا بتوجيهنا والإشراف على تعليمنا وقراءة القصص لنا .

عاد والدي الى التعليم في المدارس الخاصة، فكان يلقي المحاضرات في مدرسة ((شماس)) للجالية اليهودية صباحاً وكان له تأثير كبير على الطلبة، واعتبر هو وحسين مروة من أهم الناطقين بمفاهيم اليسار في عالم الأدب والثقافة. يصفه البروفسور ساسون قائلاً :

((كنا نحن الطلاب نتابع ما ينشر أستاذنا بكثير من الفخر والاعتزاز، أما دروسه فكان كل واحد منها مغامرة روحية بالنسبة لي وللعديد من الطلبة من أصدقائي. كان الأستاذ شرارة رجل أدب من أم رأسه الى أخمص قدميه، ولكن الأدب عنده لم يكن مجرد كلمات جميلة انتخبتها قريحة خلاقة. كان رغم اهتمامه بالعناصر الفنية في النص، يؤكد دائماً على ما يمثله الأدب، قديمه وحديثه، من خلفية اجتماعية وصراع طبقي وثورة على الحياة الذليلة ! على الاستعمار والاستغلال والعبودية. كان رغم كل الظروف السياسية القاسية، لا يفتأ يتحدث عن الثورة والأدب

الثوري، فإذا نشر الجواهري رائعة جديدة من روائعه فسرعان ما كان يقرؤها الأستاذ شرارة على طلابه في الساعات المخصصة لدراسة الأدب)).٤

كذلك أخذ يدرّس في مدرسة ((الجعفرية)) مساءً. وبالرغم من العمل المرهق وكثرة عدد ساعات التدريس، والتصليح الذي استهلك معظم أوقات راحته وإنتاجه الفكري، فقد شعر بارتياح، لأنه عاد الى جو يعرفه .

هكذا مرّت سنوات طفولة حياة، كانت تراقب عن كثب ما حلّ بالعائلة من جور وظلم، وكيف شُتت الأصدقاء والمعارف، فانخرطت في العمل السياسي، وهي ما زالت بريعان الصبا، مندفعة بعاطفة جارفة لمحاربة التعسف والظلم، ومتطلعة الى حرية الإنسان وتحطيم قيوده. وبرز ذلك واضحاً في روايتها ((وميض برق بعيد)) التي جاء فيها :

((لو يستطيع الإنسان ان يحطم القيود الاجتماعية التي تلتف حوله كالحبال الغليظة لصار شخصاً مغايراً لما هو عليه . . . نحن نتّهم وندان في محكمة المجتمع دون ان نعطى فرصـــة لسماع رأينا والدفاع عن أنفسنا)).٥

كان الحزب الشيوعي يمثل القاعدة التي دافعت عن الظلم الاجتماعي، وكان بحاجة آنذاك الى رفد من الشباب المتحمس المؤمن بنظريته، وكانت حياة خير مثال لهؤلاء. رُشحت ولم تبلغ السابعة عشرة من العمر، لحضور مؤتمر السلام الذي عقد في براغ عام ١٩٥٢، وسافرت الى شيكوسلوفاكيا لحضوره .

بعد سفر حياة بفترة وجيزة، حدث ما يعرف بـ ((انتفاضة تشرين)) في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ التي طالبت بإلغاء معاهدة٣٠ وتعديل قانون الانتخابات. واشتعلت الشرارة الأولى بسبب فصل أربعة طلاب من كلية التجارة في جامعة بغداد، وعندما رفضت هذه المطالب، أقدموا على التظاهر ونزلوا الى الشارع، والتحقت بهم فئات أخرى من الشارع، فجوبهوا بقسوة من قبل الشرطة، وأعلنت الأحكام العرفية، وألقي القبض

على عدد من الطلبة والمفكرين اليساريين، واختبأ والدي في مدينة النجف، عندما داهمت الشرطة الدار لإلقاء القبض عليه، وبعد ان فتشت وبعثرت أوراقه وكتبه، لم يجدوا إلا أخي إبراهيم البالغ من العمر الرابعة عشرة، فأخذ بدلاً عن والدي، وأودع المعتقل لمدة أربعة ايام، ولم يطلق سراحه إلا بعد زيارة لـ ((بهجت العطية)) مدير الأمن العام آنذاك، الذي كان له معرفة بوالدي، ولكنه لم يكن راضياً عن تفكيره وسلوكه السياسي .

حكم على والدي من قبل محكمة عرفية لمدة عام، لانتمائه الى منظمة ((أنصار السلام)) وتوقيعه برقية احتجاج ضد الشكيكلي، وعلى ما نشره من مقالات في تلك الفترة .

قررت سلطة السجن نقل السجناء السياسيين وإبعادهم عن بغداد، وعندما رفض السجناء نقلهم الى سجن بعقوبة، وعدم امتثالهم للأمر، شنت إدارة السجن عليهم حملة واسعة، وأطلقت الرصاص عليهم، فسقط على أثرها ثمانية سجناء وجرح عدد كبير منهم. كان والدي من بين الجرحى، ولم يسمحوا لنا بزيارته إلا بعد شهر، وعندما زارته والدتي كان لا زال مرتدياً البجامة المضرجة بالدم اليابس الذي تحول لونه الى احمر بني، لم يكن باستطاعة والدتي كبت عبراتها، فاغرورقت عيناها بالدموع وسالت على وجهها، وهزّ منظرها والدي، فنظم فيها قصيدة بعنوان (دموع . . !) ومنها قوله :

دموع أم ظلال من حنان
مطلات من المقل الرواني
دموعك يا أميمة غاليات
فصونيها مع الألم المصان
ولا تتنهدي، فالسجن مهد
تهز به جبـــــابرة الزمان
ولو عرف الذين به لتاهت
مبانيه على أسمى المباني

وتاه على الكواكب كبرياء
بـما ضمت جوانح الحواني٦
في منتصف آذار عام ١٩٥٣، وبعد مظاهرات الطلبة، داهمت الشرطة دارنا ثانية، مطالبة بإلقاء القبض على والدي، فأجابتهم والدتي أنه ما زال عندكم في السجن. فقد وضعت مـــديرية الأمن ((التحقيقات الجنائية)) اسمه بقائمتها السوداء، بالرغم من ان نشاطه السياسي كان مقتصراً على ما ينشره ويكتبه من مقالات. وفتشت الدار مرة أخرى .
بعد أن عادت حياة في عام ١٩٥٣ من براغ، ولم تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرها، اختفت في دار إحدى زميلاتها، لمدة شهرين تقريباً، وقد أصبحت آنذاك ملتزمة كلياً بمبادئ وتعليمات الحزب الشيوعي. ولم تقم بزيارة عائلتها بعد إطلاق سراح والدها .
كان سبب هذا أن الحزب الشيوعي اعتبر والدها من كتلة لا تناصرهم في موقفهم السياسي، وذلك بعد الانشقاق الذي حدث داخل الســـجن بين السجناء السياسيين، حيث انقسموا الى كتلتين متضادتين. وشعر والدنا بألم دفين من السلوك الذي لم يكن يتوقعه من الذين يعتقد بأنهم حملة راية الحرية والعدالة والديمقراطية، إذ كان صـميمياً في نظرته نحو مجتمع عادل حيث يؤمّن للفرد حرية الرأي .
وفي عام ١٩٥٤ ترك والدنا العراق متوجهاً للإقامة في لبنان، بعد أن أغلقت جميع أبواب المعيشة أمامه، وخاصة أبواب النشر، بالاضافة الى أنه كان معرّضاً لإلقاء القبض عليه في أي هزة يتعرض لها البلد بعد أن أدرج اسمه في ((القائمة السوداء)) .
أكملت حياة الدراسة الثانوية وحصلت على شهادة البكالوريا، وأصبح من الصعوبة عليها دخول جامعة بغداد، لعدم حصولها على شهادة حسن السلوك بسبب انتمائها السياسي، مما دعاها الى ترك العراق والذهاب الى سوريا .
كان هذا السلاح، سلاح شهادة حسن السلوك، يشن في محاربة الطلبة ومنعهم من الحصول على شهادة في الدراسات العليا أو العمل في الدولة

بعد تخرجهم من الكلية، وقد أصدرت تلك التعليمات خصيصاً لمحاربة اليساريين والشيوعيين من الطلبة. لذا سافر عدد كبير من خريجي المدارس الثانوية الى سورية ومصر .

وصلت حياة متأخرة، فقد بدأت الدراسة في الجامعات السورية، فخسرت سنة دراسية كاملة، ثم قررت الذهاب الى مصر والالتحاق بجامعة القاهرة، قسم اللغة الانكليزية .

التقت حياة بعدد كبير من الطلبة في مصر، وتعرفت على من سيكون زوجها في المستقبل ((محمد صالح سميسم)) الذي لم تكن التقته من قبل على الرغم من وجود علاقة عائلية في بغداد. وقد هرب من العراق كغيره لملاحقة السلطة له في العهد الملكي .

وقد اهتم واعتنى محمد بحياة بصورة خاصة.وتطور ذلك الاهتمام الى حب، وصمم على خطبتها، ولكن الظـروف لم تكن ملائمة، فأجل إعلان الخطبة رسمياً، ولكن استمرت العلاقة بينهما حتى بعد عودتهما الى بغداد عام ١٩٥٨، بعد ثورة ١٤ تموز .ولم يكن قرانهما حزبياً، كما كان دارجاً في تـــلك الفترة، وإنما كان عن حب بحت. وما جمعه بحياة ليس النشاط والاتجاه السياسي فقط، وإنما حبه وإحساسه العميق بالأدب والشعر. وانتظر حياة لحين عودتها من موسكو عام ١٩٦٨، وتم قرانهما عام ١٩٧٠، أي بعد انتظار دام ثلاثة عشر عاماً .

كانت حياة في تلك الفترة تقضي معظم وقتها بالمطالعة والدراسة في كلية الحقوق لهدوء أجوائها، حيث كان معظم الطلبة من الشباب يقومون بزيارة كلية الآداب لكثرة عدد الطالبات فيها، وهو الأسلوب الوحيد للاختلاط بالجنس الآخر. وعندما كانت في القاهرة، كان هنالك فصل تام بين الطلبة بالنسبة لانتمائهم السياسي، فالطلبة اليساريون والتقدميون لا يختلطون أو يتكلمون مع الطلبة البعثيين أو القوميين، أي هنالك عزل تام بينهم. وقد انعكست تلك الحدية وعدم المرونة في التعامل السياسي بوضوح بعد ثورة ١٩٥٨ .

تطوعت حياة خلال العدوان الثلاثي على مصر، للتدريب على حمل السلاح، جاءت بعض المتطوعات في اليوم الأول بكعوب عالية وتنانير قصيرة، وكأنهن ذاهبات لحضور حفلة رقص. لذا فإن الضابط المسؤول عن تدريبهن التزم الجد والصرامة معهن في الأيام الثلاثة الأولى، ولكن غيّر سلوكه بعد ذلك، وأخذ يبتسم ويتساهل ويضحك، وكانت المتدربات يخلقن جو معركة حقيقي .

وفي عام ١٩٥٧، طلب من نوري عبد الرزاق ـ الذي كان طالباً يدرس مع حياة في جامعة القاهرة ـ أن يتكلم ساعة عن الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري أمام عدسة التلفزيون المصري، فأتصل بـ حياة، ورتب معها منهجاً شيقاً. فكان نوري يتكلم عن منجزات الجواهري، وحياة بدورها تلقي شعراً من دواوين الجواهري. ولاقى المنهج نجاحاً لم يتوقعاه، حتى أن الكاتب الكبير طه حسين، طلب إعادة المنهج في اليوم التالي.٧

عادت حياة ووالدي الى العراق عام ١٩٥٨، بعد ثورة الرابـع عشر من تموز، مع الطلبة والمنفيين الذين كانوا خارج العراق. واستبشر الناس في بداية الثورة، ببداية صفحة جديدة في تاريخ العراق، وانعقدت الآمال والأحلام على عراق يسوده العدل وكل ما ترمز له كلمة الديمقراطية من معان. هذا ما كان يرنو إليه والدي عندما نظم قصيدته بوالدتي في سجن بعقوبة :

وراء الغيب خـيط من شعاع
سيبزغ، ثم يأخـــــذ بالتداني
أكـــــــــاد أراه شفافاً نقياً
على رغم الغمـــائم والدخان
وألمــحه ـ وظل الليل يمـشي
على شفق الصباح الارجواني
وألمـح عنده عـــــيداً عظيماً
تطوف به المـــباهج والتهاني

وتتألق الحـــــــياة به وتغدو
نعيماً ماله في الدهـــــر ثاني
وعندئذ يســـود الأرض عدل
ترفف فيه أجنـــــــحة الأمان
فلا سجن، ولا إرهـــاب فيها
ولا تخويف للشرف المــعان ٨

ولكن في صباح ذلك اليوم الرابع عشر من تموز، سيطر العامة على الشارع، بتشجيع من نائب الرئيس عبد السلام عارف، طالباً إليهم التوجه نحو القصر الملكي، فأدى ذلك الى نهبه وتدميره، وقتل من بداخله وسحلهم في شوارع بغداد .

كانت بداية عنيفة ورهيبة، وانتقاماً بشعاً، وأصبحت شوارع مدينة بغداد كتلة بشرية واحدة، تتماوج وتتدافع لرؤية جثث عارية معلقة من رؤوسها تحت شمس تموز الحارقة .

ولم تمر إلا بضعة أسابيع حتى ظهر التصدع في جدار الثورة، بسبب المنافسة والصراع على السلطة بين رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم ونائبه عبد السلام عارف. واحتضن الديمقراطيون والشيوعيون عبد الكريم قاسم، أما القوميون والبعثيون فاحتضنوا عبد السلام عارف، الذي كان مُسنداً من قبل جمال عبد الناصر. ولعب عبد الناصر دوراً كبيراً في إحداث هذا التصدع، فقد كان يطمح في ضم العراق الى الوحدة القائمة بين سوريا ومصر. وكان معارضاً جداً للاتحاد الفدرالي. وانقسم المجتمع العراقي بين مؤيد للوحدة ومؤيد للاتحاد الفدرالي .

كان عبد الكريم قاسم رجلاً بسيطاً ومخلصاً للعراق، تعوزه الخبرة والحنكة السياسية. ولكن عندما تقلد أمور الحكم طمح في السلطة المطلقة. أما عبد السلام فكان رجلاً طائفياً، متهوراً ومحدود الأفق. وأصبحت خطاباته العديدة، منها : ((لا قـــصور ولا ثلاجات بعد اليوم))، مثاراً للتهكم والسخرية بين الناس. ولم يكن عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء آنذاك راضياً عن سلوك نائبه عبد السلام، فاحتدم

الصراع والتناحر بينهما للقبض على مقاليد السلطة والتفرد بها، وأهملت فكرة تسليم مقاليد الحكم للمدنيين عن طريق إجراء انتخابات حرة .
وتفاقم الوضع سوءاً عندما عيّن عبد الكريم قاسم، قريبه فاضل المهداوي، رئيساً لمحكمة الشعب، لمحاكمة جماعة ((العهد البائد))، فأصبحت المحكمة (سيرك) واتجهت الى مهاترات مع الرئيس عبد الناصر، ومنافسة شعرية وخطب حمـــاسية رنانة بين رئيس المحكمة (المهداوي) والحاضرين من الناس المؤيدين لكل ما يتفوه به. وانتشرت الفوضى في المحكمة إلى درجة أن المتحمسين من الحاضرين رموا الحبال على المتـــــــهمين الواقفين داخل قفص الاتهام، مطالبين بشنقهم، وكأن التاريخ أعادنا الى عهد الثورة الفرنسية، التي قاسى سكانها من العنف والفوضى التي تجلت في أحكامها الاعتباطية منذ مئتي عام .
كما أخذت (المقاومة الشعبية) التي أنشئت كميليشيا، تجوب شوارع مدينة بغداد عند غروب الشمس، وتقوم بتفتيش السيارات والمارة من الناس المشتبه بهم، وفرض منع التجول بعد منتصف الليل، الذي استمر معظم عهد عبد الكريم قاسم. وتم إلقاء القبض على (أعداء الثورة) الذين أخذت تتزايد أعدادهم يوماً بعد يوم ! فساد جو مشحون بالرعب والخوف بين الناس، وكانت المقاومة الشعبية تقتحم الدوائر الحكومية حتى في رابعة النهار لإلقاء القبـــض على الموظفين من (أعداء الثورة). هذا ما انحدرت اليه الثورة من تدهور وفقدان المصداقية والمبادئ التي جاءت من أجلها .
وصدرت في بداية الثورة مراسيم أدت الى تخريب المستوى العلمي كإصدار (مرسوم الزحف). وطُبق هذا المرسوم على الطلبة الذين لم ينجحوا في امتحان البكالوريا لكي يمكنهم دخول الجامعة بلا امتحان. فتساوى المجتهد والكسلان، وأدى ذلك الى تدهور علمي، وتم بهذا تسييس مؤسسات التعليم .

ووصل الانشقاق والتأزم في الوضع، الى قيام الشواف بحركة انقلابية فاشلة أدت الى إلقاء القبض على المشتبه بهم، وبدأت سلسلة من الاعتقالات والتعذيب والإعدامات، بعد محاكمتهم من قبل محكمة المهداوي. واعتقل عبد السلام وأودع السجن، وحكم عليه بالإعدام، إلا ان عبد الكريم قاسم عفى عنه بعد فترة قصيرة .

انتهز الحزب الشيوعي ومؤيدوه هذه الفرصة، فقاموا بتنظيم (قطار السلام) لزيارة الموصل كعمل تأديبي لسكانها، الذين تجرأوا وتآمروا على الثورة، فكان من جراء هذه (الزيارة الشعبية) القتل والسحل والإعدامات الفورية، وتكررت هذه الأعمال في مدينة كركوك أيضاً .

أدى هذا التأييد الذي حصل عليه عبد الكريم قاسم من قبل اليسار والحزب الشيوعي، الى التغلغل في معظم مراكز الدولة الحيوية لفترة قصيرة، ونشرت حوله هالة التأليه، وأصبح (الزعيم الأوحد) وشاهد المنافقون من الناس صورته في القمر عندما كان بدراً، وصدق البسطاء هذه الروايات. وأصبحت خطبه أكثر رتابة وطولاً من خطب عبد الناصر، وشلّت المظاهرات اليومية المتواصلة الأعمال التجارية والمدارس والجامعات عن العمل .

وتغلغل الانشقاق وطفت الأحقاد بين صفوف المجتمع، واختل التوازن الاجتماعي، فشملت العلاقات العائلية بين الولد وأبيه، وعادى الأصدقاء بعضهم بعضاً، وغاب المنطق السليم والوجدان في الأمور والحوار بين الناس، واختزلت تعقيدات الحياة ومشاكلها بلونين الأحمر والأخضر، وأصبح اللون يرمز للانتماء السياسي، فاللون الأخضر يرمز للقومي واللون الأحمر للشيوعي، وشمل حتى الأطفال الذين أخذوا يطالبون أمهاتهم ارتداء اللون القومي أو الشيوعي. وامتنع بعض الناس عن أكل الطماطة (البندورة) للونها الأحمر، وعن ارتداء اللون الأحمر، كردود فعل غير عقلانية لمواجهة الشيوعية .

عندما عادت حياة بعد ثورة الرابع عشر من القاهرة، التحقت بكلية الآداب، قسم اللغة الانكليزية، لإكمال تعليمها الجامعي، ألقى الحزب

الشيوعي على عاتقها أعمال ومهمات حزبية كثيرة، كانت تنوء تحت عبئها الثقيل أدت بها الى إهمال الدراسة والدوام الجدي في الجامعة. إنها كانت مسؤولة عن تنظيم المظاهرات والتوعية بين الناس، وحضور الاجتماعات الحزبية المتواصلة. بعد بضعة أشهر من النشاط المتواصل بدأ الإعياء يؤثر على صحتها، من قلة النوم والعمل المتواصل. بل كان عليها القيام بواجباتها حتى أثناء مرضها. كانت تَمر بصراع نفسي عنيف لم تبح به بل ظلت صامتة، وشعرت أن الأعمال التي كانت ترتكب غير صحيحة ولا تتفق بما تؤمن به .

بالرغم من الفوضى والاعتداءات التي حصلت في تلك الفترة، فقد شهد العراق درجة من الحرية في إبداء الآراء المختلفة، فسمح بإصدار صحف ومجلات متعددة، تمثل جميع الفئات السياسية، من القوميين والبعثيين والشيوعيين والديمقراطيين. وكانت الصحافة المناوئة لسياسة عبد الكريم قاسم، تهاجمه بعنف مستمر، كما كانت جريدة (صوت الشعب) التي أصدرها الحزب الشيوعي، عنيفة وجدية في مهاجمة أعداء الثورة بلا هوادة .

ولكن عندما مال عبد الكريم قاسم في اتجاهه السياسي تدريجياً نحو الوسط واليمين، محاولاً الابتعاد عن اليسار والحزب الشيوعي، حتى أنه أمر بإلقاء القبض على بعض قادته، نشط في تلك الفترة حزب البعث الذي لم يكن له قاعدة شعبية قبل الثورة، وأصبح قوة مهمة بالاشتراك مع القوميين، فاستغلوا خوف الناس من انتشار الشيوعية، ولعبوا على ذلك الوتر بنجاح. وزاد التردد على الجوامع وحضور خطبة الجمعة، وقوي الاتجاه الديني السياسي، محاولة لعزل اليساريين والحزب الشيوعي وإضعافهم، متهمين الشيوعيين بتدنيس القرآن، فخرجت المظاهرات في (حي الأعظمية) مطالبين بقتل الكفرة، وظهرت المعركة بوضوح بين الطرفين في الانتخابات النقابية التي سيطر القوميون والبعثيون عليها تدريجيا .

ضعفت حكومة عبد الكريم قاسم الى درجة كبيرة، وأصبح اغتيال المناصرين له والمدافعين عن سياسته من الأحداث التي كانت تتكرر يومياً، وأخيراً حاولوا اغتياله في وضح النهار، ورشق بالرصاص من جميع الجهات، ولكنه نجا من الاغتيال بالصدفة .

وأنيط بكتابة المقالات في جريدة (صوت الشعب) في تلك الفترة باليساريين من أمثال والدي، مما أدى الى وضع أسمه في (قائمة الاغتيال) التي تبناها المناوئون لـ عبد الكريم قاسم .

وفي نهاية عام ١٩٦٠، حكم على والدي لمدة ثلاث أشـــهر بالسجن في سجن (نقرة السلمان) لكتابته هذه المرة مقالاً طعن فيه بصحة انتخابات نقابة المعلمين. إذ لم يكن والدي راضياً على التطرف والاعتداءات التي أصبحت روتيناً يومياً .

ولذا عندما خرج من السجن، قرر ترك العراق، حيث وجد أن عراق الثورة وعراق نوري السعيد لا يختلفان، ولم تتحقق آماله في أن (يسود الأرض عدل، ولا رفرفت أجنحة الأمان) كما كان يحلم ويتوق في تصوراته لثورة مثالية .

وبتردي الوضع العام، قررت حياة الذهاب الى موسكو للدراسة، لأنها كانت مصممة على ترك الحزب الشيوعي بعد ما خاب ضنها في العمل السياسي، وكانت على اختلاف مع الشيوعيين، ولم يكن بوسعها ترك الحزب والبقاء في العراق، حيث سيتحول بعض أعضائه الى مهاجمتها ونعتها بالخيانة والجبن، الأمر الذي كانت تتجنبه. كانت في صراع نفسي متواصل، فكان تقديمها طلب الالتحاق بالبعثة لإتمام دراستها فرصة مناسبة للتخلص من هذا الجو والابتعاد عنه، وقد صوّرت تلك الخيبة على لسان أحد أبطال روايتها (وميض برق بعيد) :

(كان خالد متحمساً لكل ما هو مثالي ولكل ما يمكن أن يخفف من مآسي الحياة والشر المتغلغل في طواياها، ولذلك انتمى الى حزب سري. اكتشف تدريجياً الاختلاف الكبير بين ما يؤمن به من أفكار وبين تطبيقها العملي. كانت طبيعته حساسة ولا تتحمل الازدواجية لذلك قرر

الانسحاب، وإذا برفاق الأمس الذين يجمعهم الإيمان بقضية الإنسان يتحولون الى أبواق تنعته بالجـبن والأنانية ويستهينون به ويسخرون منه)٩ .

لم يّمر عام على محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، حتى نجح البعثيون بالسيطرة على مقاليد الحكم، في ٨ شباط، عام ١٩٦٣ .

كان انقلاباً دموياً عنيفاً جداً، وشمل التعذيب والقتل شرائح مختلفة من المجتمع، وجثت ســـــحابة كالحة مظلمة في سماء العراق، لم تنقشع إلا بعد بضعة أشهر فألقي القبض على عدد كبير من الناس، بمساعدة الميليشيا الجديدة التي أطلق عليها هذه المرة أسم (الحرس القومي)، وكانت مهمتها إلقاء القبض على الناس وإيداعهم الاعتقال، واستجوابهم بشتى طرق التعذيب. وشمل ذلك كل من له صبغة ديمقراطية أو يسارية، وامتلأت المعتقلات بالمعتقلين حتى لم تعد تسعهم، فحولت بعض الملاعب الى معتقلات، كالنادي الأولمبي. وعذب وقتل واختفى عدد كبير من المثقفين والمفكرين ودفنوا بقبور جماعية، ولم تسلم حتى الجامعة، فقد ألقي القبض على الأساتذة والطلبة في داخل حرم الجامعة. كما فصل عدد كبير من الفئة اليسارية من أعمالهم .

كان للولايات المتحدة دور مهم في هذا الانقلاب، وكانت من المخططين في إزالة حكم عبد الكريم قاسم، ساندت بكل قواها حزب البعث ضده، حتى تبجح (ليكلند) أحد كبار موظفي السفارة الأمريكية، ـ حينما أعلنت أسماء الوزارة ـ أن له علم بمعظم أسماء الوزارة، ولم يخفِ ذلك آنذاك علي صالح السعدي، وزير الداخلية، قائلاً في كثير من المناسبات (لقد جئنا بقطار أمريكي) .

ومن الصدف ان حياة ووالدي كانا خارج العراق آنذاك، حيث سافرت حياة عام ١٩٦١ لدراسة الدكتوراه في جامعة موسكو، وسافر والدي الى الصين بنفس التاريخ للتدريس في جامعة بكين. ولكن لم ينج دارنا من التفتيش، فبعد مرور أربعة أيام على الانقلاب، قرع باب دارنا، وعندما فتحت والدتي الباب فوجئت (بالحرس القومي) موجهين بنادقهم

نحوها، وأطلق أحدهم رصاصة من بندقيته ثقبت السجادة المفروشة في غرفة الضيوف. التصقت والدتي بجدار الغرفة جامدةً من الرعب والفزع الذي انتابها، وكان بينها وبين أصابتها بضع بوصات .
ظن أفراد الحرس القومي أنهم عثروا على وكر مهم، وكان السؤال الأول أين حياة ؟ أجابهم أخي إبراهيم : إنها خارج العراق منذ عامين، والسؤال الثاني عن والدي، فأجابهم نفس الجـــواب، إنه خارج العراق أيضاً، فلم يرتح رئيسهم لهذه الإجابة، لذا قرروا ألا يتركوا الدار صفر اليدين، فأخذوا أخي رهينة بدل والدي وحياة. وهذه هي المرة الثانية التي يتعرض لها إبراهيم لمثل هذه التجربة .
إن أخذ البديل ليس ابتكاراً جديداً فقد دخل القاموس العراقي بـ (انتفاضة تشرين) عام ١٩٥٢ في العهد الملكي، وطَبق على نطاق واسع من قبل منفذي هذا الانقلاب الجديد .
بعد الانتهاء من التحقيق، وتفتيش الدار وبعثرة الكتب والأوراق ونبش صور العائلة والأصدقاء، لم يجدوا شيئاً مهماً، وبعد تحقيق دام ساعتين علموا خلالها أن إبراهيم كان طيلة تلك الفترة الماضية طالباً في انكلترا، وشفعت له معرفته ببهاء شبيب وأحمد النقيب اللذين كانا من أقطاب حزب البعث آنذاك، وإعجابهم بكتابات عمي عبد اللطيف شرارة وخاصةً كتاب (روح العروبة)، فنجى إبراهيم من إلقاء القبض عليه كبديل، وأفلت من الاعتقال .
استمر منع التجول لبضعة أيام، تم خلالها إلقاء القبض على مناهضي الانقلاب. لم أستطع زيارة والدتي إلا بعد مرور أسبوع تقريباً، وصلت دارهم بعد ان قطعت عدة حواجز تفتيش. كانت والدتي لا تزال تعاني من حالة الرعب التي هيمنت عليها، فلم تتجرأ على فتح باب الدار إلا بعد أن تأكدت من صوتي .
وأخبرتني بما حدث، سألتها هل فُتشت الدار، أجابت نعم، ولكنهم لم يعثروا على أي شيئ يهمهم، فقد سبقتهم في ذلك. قلت ماذا تقصدين، أجابت لقد أحرقت جميع ما تحتوي عليه المكتبة من كتب وأوراق عائدة

لوالدي وحياة، خوفاً على إبراهيم وجهاد. وهكذا فقدت العائلة الكثير من الوثائق والنصوص الشعرية وغيرها .
مرّت لحظات من الصمت، وأعادتني الأحداث الى عام ١٩٤٨ و١٩٥٢، عندما كانت مصادرة الكتب والأوراق ذريعة تتخذها السلطة في مكافحة الفكر، وهذه هي المرة الثالثة التي أصـــــــبحت الكتب فيها ضحية، وعانت التدمير والحرق. ولكن من سخرية الأقدار أن والدتي قامت بهذا العمل بدلاً من (الحرس القومي) .
بعد بضعة أشهر، قام عبد السلام عارف بالانقلاب على البعثيين، بعد أن وجد ان السلطة ستفلت من يديه، ولكن لم يطل عهده فقد قضي عليه بسقوط طائرة الهليوكوبتر التي كانت تقله الى بغداد. واستلم مقاليد الحكم أخوه عبد الرحمن عارف، الذي تميز عهده بالهدوء والاستقرار، فقد حاول تطبيع الوضع في العراق .
ظل البعثيون في الانتظار، وأصبحوا أكبر قوة سياسية تهدد الحكم لتغلغلهم بين إفراد الجيش والشرطة. وعندما نجحوا في الانقلاب مرة ثانية في تموز، غيروا سياستهم هذه المرة، وحاولوا فتح صفحة جديدة، فعفوا عن جميع اليساريين والديمقراطيين والشيوعيين وأعيدوا الى وظائفهم .
عادت حياة في هذه الأثناء الى بغداد ثانيةً، بعد ان حصلت على الدكتوراه في الأدب الروسي، من جامعة موسكو. قضت حياة ستة أعوام في موسكو، وكانت بعثتها لخمسة أعوام، فاحتاجت الى منحة للسنة الأخيرة لتكمل كتابة أطروحتها عن (تولستوي فناناً) ، ولكنها لم تحصل على المنحة المطلوبة من السلطات السوفيتية لاعتبارها غير متعاونة مع الحزبيين الشيوعيين المسؤولين عن الطلبة العراقيين، فاضطرت الى العمل في الترجمة في مؤسسة (تاس) وباعت معظم ملابسها لكي تكمل تلك السنة وتحصل على شهادة الدكتوراه .
ابتعدت عن العمل السياسي عند عودتها الى بغداد، واتجهت نحو العمل الأدبي البحت. تم زواجها من الدكتور محمد صالح سميسم .

لم يكن زواج حياة زواجاً تقليدياً، بل ذهبت الى المحكمة مع شاهدين، فأجرت مراسيم الزواج، ولم تقم حياة عرساً أو حفلة زواج، فقد تجاوزت تلك الطقوس والشعائر التي يمارسها المجتمع. وأقامت مع زوجها بدار أجرة، مؤثثة بأثاث بسـيط، في بادئ الأمر، واقل من المستوى الذي عاشته في دار والدها، ولكنها كانت راضية مقتنعة بأن ما تقوم به هو الصحيح .

كان لوفاة والدتي في نهاية عام ١٩٧٠، اثر عميق عليها، بالرغم من أنها قضت فترة طويلة من حياتها بعيدة عنها، فقد شعرت حياة بما قامت به والدتي تجاه أولادها من تضحيات طول حياتها، بعد أن أصبحت هي نفسها أم، فأحست بما تتطلبه الأمومة من واجبات وإنكار للذات .

خلال العقد الأول من مجئ البعثيين للحكم ثانيةً، وبالرغم من البداية الدموية في عام ١٩٦٩، بتعليق المشانق في ساحة التحرير، لم تتعرض السلطة إلا للذين كانت تعتقد أنهم خطر عليها .

وتدفقت أموال النفط على العراق بعد حرب ١٩٧٣، التي صرف معظمها على مشاريع التسليح لجعل العراق قوة حربية في المنطقة، وقد نالت المشاريع العمرانية والثقافية والصحية، قسطاً ضئيلاً تمركز معظمها في العاصمة بغداد. تحسّن وضع الناس الاقتصادي بزيادة رواتب الموظفين، ونشطت الحركة التجارية بالرغم من التأميم الذي شمل معظم مرافق الحياة اليومية، وبالرغم من الانتظار الطويل للناس للحصول على مؤونتهم اليومية، حيث كانت الأحاديث تدور حتى في الجامعات عن وصول البيض والدجاج والبصل في الأسواق وكيفية الحصول عليها. وظل الموظف مشغولاً دائماً بإطعام عائلته بالرغم من أنها كانت فترة رخاء مالي، وكان أساتذة الجامعة في كثير من الأحيان ينتهزون فرصة فراغ ساعة واحدة ليهرعوا بدورهم للوقوف في الصف بانتظار ما يتكرم عليهم البائع من مواد غذائية. وأصبح الحديث الرئيسي بين الناس هو الطعام. وانقطع استيراد الموز بعد تأميم المواد الغذائية، لعدم القدرة على التسويق الجيد، فالموز عرضة للتلف بسرعة، ويحتاج

الى المقدرة على التسويق السريع. وقد نشأ جيل في العراق ـ شمل مها وزينب بنتيْ حياة ـ يجهل طعم الموز. وأصبحت هدية الموز لا تثمّن، عندما تجلب عن طريق الكويت أو لبنان .

كان نائب رئيس الجمهورية صدام حسين في تلك الفترة هو الرئيس الحقيقي، بالرغم من ان احمد حسن البكر هو رئيس الجمهورية. واعتاد النائب على التجول في أنحاء العراق، وتوزيع الهدايا على عامة الناس، من الثلاجات الى التلفزيونات، وقد كسبهم بتلك الطريقة، وصارت له شعبية واسعة في أنحاء البلاد .

ثم تم تهجير العراقيين الذين سموا بـ (التبعية) ممن لم يكونوا يحملون الجنسية العثمانية، واعتبروا إيرانيين، بالرغم من ان عدداً كبيراً منهم عرب، لا يتكلمون اللغة الفارسية. وقد رحّلوا خارج الحدود العراقية بعد مصادرة أموالهم. وكثيراً ما قسمت العائلة الى شطرين، فإن كانت جنسية الزوجة عثمانية، بقيت مع أولادها، وسّفر الزوج. وشملت التبعية شريحة واسعة من المجتمع، لم تقتصر على فئة أو طبقة معينة، وإنما شملت الفرّاش والمدير العام والمهندس والمسّاح والمحامي والطالب وربة البيت .

واتسعت الحلقة في إلقاء القبض على الناس وسجنهم، وزاد الضغط على غير البعثيين في إجبارهم على الانتماء الى الحزب، وكان من لا ينتمي يحرم من امتيازات كثيرة يتمتع بها الحزبي، فخصصت البعثات الدراسية والتخصص بالدراسات العليا في الجامعات الأجنبية للحزبيين فقط، وحرم غير البعثي من التخصص خارج العراق إلا على حسابه الخاص، أي العائلات الموسرة فقط، فأصبحت البعثات وقفاً على الحزبيين، وليست على المتفوقين والموهوبين من أبناء البلد .

وطلب من حياة في تلك الفترة الانتماء الى حزب البعث أو ترك الجامعة، إذ كانت أحد قرارات الحزب تقضي بجعل قطاع التعليم بعثياً بحتاً، وعندما رفضت حياة الانتماء الى حزب البعث، لتركها العمل السياسي منذ عام ١٩٦١، نقلت بأمر إداري من كلية الآداب، بالرغم من

كونها بدرجة أستاذ، الى وزارة الصناعة، ومن ثم نقلتها وزارة الصناعة الى مدينة الديوانية كمترجمة في أحد المشاريع الروسـية. ولولا مواجهة حياة للرئيس لما كان بإمكانها العودة الى الجامعة .

بعد عودة حياة الى العمل الجامعي، لم ينج زوجها محمد من حملة الاعتقالات التي اجتاحت العراق، وألقي القبض عليه، بعد ان قضى يومه في إجراء خمس عمليات جراحية كبيرة، وعندما رن جرس الباب تسمر في مكانه، وبدت الدهشة على وجهه، فمن عسى يدق الباب عليهم في مثل تلك الساعة المتأخرة بعد منتصف الليل ؟ لقد قضى نهاره في المستشفى من عملية الى أخرى، لم يسمح له الوقت حتى في تناول غذائه. علم ان الدار محاطة برجال الأمن فلا مفر له إلا أن يفتح الباب وتسليم نفسه كالشاة الذاهبة للمجزرة. استجمع قواه المنهكة بعد يوم طويل قضاه في المستشفى، وتوجه نحو الباب وفتحه، وشعر (بخوف يجمّد الروح ويشل الأوصال ويميت الكلمات على الشفاه ويبعث الفزع في العيون، ويظل المرء مسمّراً في مكانه في تلك الزاوية الضيقة التي حصر فيها لا يتحرك إلا بإرادة غيره) .١٠

سمع صوتاً هادئاً وقوراً قائلاً له : دكتور تفضّل معنا للاستفسار عن بعض الأسئلة، ولن تتأخر أكثر من ربع ساعة، وتعود الى دارك وعائلتك. كان هذا الأسلوب هو المتبع والسائد في إلقاء القبض على الفئة المتعلمة والمثقفة من الناس، بكل أدب ودماثة. وعندما حاول محمد جلب أدوات الحلاقة وبعض الملابس الداخلية، أصروا على عدم الحاجة إليها. فعاد يجر قدميه بثقل نحو السيارة البيضاء .

ظلت حياة صامتة، شاخصة بنظرها نحو السيارة التي ابتعدت تدريجياً، ولم تعد تسمع هديرها، واختفت عن أنظارها، كما اختفى من بها. عادت الى غرفتها، مخنوقة العبرات، ولم يغب شبح زوجها طول الليل عن ناظريها، وتملكها قلق ممزوج بعجز غريب، لا تدري ما يخبئ لها الغيب. فمصير من يلقى عليه القبض بهذا الأسلوب مجهول عادةً، وهو

بيد جلادين لا يرحمون، وتبقى الأسئلة على الشفاه، دون جواب، هل سيعود ومتى؟ وليس من جواب إلا الانتظار وربما الانتظار الطويل .
ولكن لم تستسلم حياة للضعف ولم تعرف القنوط واليأس .
عندما جلس محمد في السيارة، شدت عينيه (بعصبة) من قماش أسود اللون، ودارت في خاطره أفكار كانت تؤرقه لمدة من الوقت، عاشها ليلاً ونهاراً، في العيادة والمستشفى. ولم يغب عنه تهديدهم له باختطاف عائلته. وتجسدت حقيقة جديدة أمام عينيه، حقيقة استخلاص الاعترافات منه بقوة التعذيب. هل له القدرة الجسدية والمعنوية على الصمود، ومقاومة التعذيب النفسي الذي استوردت تقنياته مؤخراً من معسكرات التعذيب في ألمانيا الشرقية .
رُفعت العصبة السوداء عن عينيه، فوجد نفسه في زنزانة لوحده. قضى فترة من العزلة التامة لا يعرف مصيره، وظل في قلق وتساؤل مستمر، كان همه ألا ينهار أمام المستجوب عندما اقتيد الى غرفة سُلّط عليه فيها ضوء قوي ساطع، وكلما أحنى رأسه وخزه أحد الحراس وأعاده الى اليقظة المُرة، وحُرم من النوم، وظل التحقيق مستمراً معه ليل نهار لبضعة أيام. وعندما لم يحصلوا على اعترافات منه، وزالت القشرة الأولى من الجلد من فرط الحروق .
بعد شهر من تعذيب متواصل، شدت العصبة السوداء ثانيةً على عينيه، ودفع بسيارة بين حارسين، لا يدري الى أين يذهبون به، ثم انزل من السيارة وهو يترنح من الوهن الذي أصابه، وعندما رفع العصبة عن عينيه وجد نفسه قرب مستشفى الطوارئ، المستشفى الذي يعمل فيه. هذه هي عادةً الطريقة المتبعة في إلقاء القبض والإفراج عن المتهم، إذ يظل في جهل مطبق عن سبب اعتقاله وإطلاق سراحه، وبذلك يعيش المتهم حياة قلق وخوف حتى بعد إطلاق سراحه .
لزمت حياة الصمت معظم الوقت عندما كنتا أزورها، وإن تكلمت، فكانت تتكلم همساً، خوفاً من النسيم أن يسمع حديثنا. كان من حسن

حظها وجود والدي معها، فقد ساعدها في تلك الفترة الحرجة، وكان سنداً لها على تحمل المعاناة التي مرت بها .
عاد محمد من المعتقل شخصاً يختلف عما عهدناه، شخصاً محطماً تماماً. فالمعانات النفسية والمرارة التي كابدها، وتكاثر همومه التي تراكم بعضها فوق بعض هيمنت عليه. والخوف الدائم على عائلته من جهة، وملاحقة لجنة حزب البعث المحلية وتهديدها المتواصل له، وإصرارها عليه في الانتماء لحزب البعث من جهة أخرى، جعلته يشعر بيأس مأساوي عميق، فلم يعد يرى أمامه إلا عالماً مظلماً خالياً من النور يقّض مضجعه. تحت هذا الضغط النفسي الهائل الذي عاشه وعاناه، وفي هذا الجو المشبع بالفزع والرعب، أصبحت قنينة الويسكي أنيسه وجليسه، يدفن فيها همومه ومعاناته من الاهانات النفسية والتعذيب الجسدي، بما يرتشف منها .
وانعكس ذلك على علاقته بعائلته. واعتقدت حياة أنه كان يحاول التخلص من مرارة الواقع والكوابيس التي هيمنت عليه، فلم تعد ابتسامة مها أو ضحكات زينب تعنيان له شيئاً. لقد ذاب الزمن السعيد وتلاشت الأمنيات العذبة أمام ناظريه. وانعكست تلك الحالة على الطفلة مها التي أصبحت تختبئ في غرفتها عندما تحس بمجيء والدها. مرّت حياة بفترة عصيبة، لا تدري كيف تجابه هذا الواقع الجديد عليها، وكيف تتغلب على هذه المشكلة التي قلبت حياتهم رأساً على عقب، فانغمست في الكتابة وقضاء وقتها بين الكلية ومكتبة الجامعة .
وما زاد الحالة تعقيداً، وفاة والدي المفاجئ في ١١ تموز / يوليو ١٩٧٩، وهو الحدث الذي لم يكن أحد منا يتوقعه، فقد أحدث فراغاً كبيراً في حياتنا. كانت أحاديثه المتنوعة الحلوة، الشيقة، وقراءته للشعر، تنسينا المتاعب التي كنا نمر بها، أنا وحياة، وبفقدانه، لم نفقد فقط أباً حنوناً وإنما فقدنا صديقاً عزيزاً ورفيق فكر. وقد أبرز حسين مروة هذه الصفة عندما كتب عنه بعد وفاته .

(كان محمد شرارة محدثاً بارعاً وشائقاً وممتعاً . . . مرهف الذاكرة وحاضرها دائماً . . . فهي على أهبة الاستجابة له لحــظة يدعوها الى فتح خزائنها الزاخرة بألوان المعارف والوثائق ومأثور الشعر وذخائر التراث. وهو ما أن يبدأ الحديث حتى تتدفق بكل ما يحتاج اليه موضوع الحديث من نصوص وشواهد، مهما تكن طولاً أو عسراً أو تعقداً). ١١
لقد عانى والدي الظلم والاضطهاد من قبل السلطات الحاكمة، وأرغمته المحن على العيش في المنفى، ولم يتحول حلمه الى حقيقة. بخلاص العراق من العنف والفوضى والأعاصير التي عصفت به بشراسة .
لم تكن حياة مرتاحة من دفنه في مقبرة وادي السلام في النجف، وبرز ذلك بوضوح في رسالتها المؤرخة ١٩ / ١٠ / ١٩٧٩ .
(في الحقيقة ان والدي دفن في مكان لا تهواه روحه في وادي السلام الكئيب المجدب. كان يجب دفنه على سفح ربوة أو جبل فوقها أشجار خضراء تغرد العصافير صباحاً وتحوم والبلابل ويلاعبها النسيم. فهذا ما ينسجم مع خياله وما يريح نفسه ويشيع فيها الهدوء. ولكن حياته المتعبة المشحونة بالهموم انتهت بقبر عابس. لا أدري لماذا أفكر مثل هذا التفكير، فعندما يصبح الإنسان جثة لا يهم أين يقبر أو يدفن، فهو لا يحس ولا يشعر بشيئ. ولكن عندما أفكر بزيارته في ذلك المكان الحزين ينعصر قلبي، وأتذكر جبال لبنان التي كان يمكن ان تكون مأوى مناسباً لرفاته. والدي لا ترتاح نفسه في مثل هذا المكان الحزين . . . إنها أوحش مقبرة رأيتها في حياتي، إن منظرها تجسيد لبشاعة الموت وهوله) .
وأحست حياة بحزن عميق وبمرارة ولوعة فقدانه، فقد عاش في دارها بعد عودته من لبنان عام ١٩٧٦ لمدة ثلاثة أعوام تقريباً، وتجلت تلك اللوعة في رسائلها الى شقيقتها مريم .
(أتذكر الأيام التي قضيتها مع والدي، كنا نجلس في الحديقة سوية نتحدث في شؤون مختلفة أو نتمشى في الشارع نذرعه ثماني مرات ذهاباً وإياباً. كل شيء يذكرني به في بيتنا، ما زال سريره في المكتبة

والآخر على السطح، أنظر اليه كل يوم في اللـــــيل عندما أغلق حنفية المبردة وأقول من كان يتصور أنه لن يقضي هذا الصيف معنا، وعندما أنام لا تفارقني صورته وأقواله وأحاديثه .

لقد هزني موت والدتي وآلمني ولكن موت والدي يكاد يحطمني. هنا أسباب كثيرة لمثل هذا الشعور الذي أعانيه، منها التقارب بيننا في السنة الأخيرة خصوصاً. لقد غمرنا بعواطف لم نعرفها منه طوال حياتنا وعاش همومنا وحاول جهده التخفيف عنها .

على كلِ الزمن يخفف من قسوة الأحداث مهما كانت فادحة والحياة اليومية تجرفنا في تيارها المألوف وتعيدنا تدريجياً الى حياتنا المعتادة، جاعلة إيانا نفكر بالهموم اليومية الصغيرة .

الذكريات عنه لا تنتهي. وعندما أقرأ مقالاته تذكرني بكثير من أبيات الشعر التي يهواها والتي كان يرددها وأحياناً أسمع صوته وأنا أقرأ تعليقاته وضحكاته) .

وقد أحست بالغربة بين الناس، بعد وفاة والدي، وليس أوضح من ذلك ما جاء في رسالتها بتاريخ ١١ / ٣ / ١٩٨٠ :

(لا زال قول المتنبي و (خير جليس في الأنام كتاب) صحيحاً وأردده دائماً، بل أعمل به. الحياة الاجتماعية عندنا ما زالت أرحب مما هي عندكم ولو أن حلقاتها بدأت تضيق لكثرة مشاغل الناس وانغمارهم في همومهم الخاصة وحياتهم الفردية. ومع ذلك لا أجد متعة بالحديث مع الناس ولا أحب الزيارات والاختلاط لشعوري بنوع من الغربة معهم. فيجب مجاملتهم في أحاديثهم التي تدور جلها حول الأكل والأطفال وقضايا البيت ولا تخرج عن هذا الإطار الضيق، ومن هنا أتى تفكيري بترجمة (تشيخوف) لأنه يصور هذه الحياة اليومية المألوفة الباهتة التي تطفئ حتى القلوب المتوقدة وتبعث الرماد فيها مع مرور الزمن. ويطلقون بالأدب الروسي على هذه الفترة تسمية الاهتمام بالقضايا الصغيرة التي ابتلعت حياة الناس .

فانا اشعر بالغربة الفكرية والروحية عن الآخرين والعـــــــلاقات كلها

سطحية عابرة مع الناس، إنها أشبه بعلاقتي مع المارة الذين لا أعرفهم، أما أعماق النفس فتحيا بوحدة وعـزلة محتفظة بحرارتها وتوقها وأمانيها) .

بدأت حياة في تلك الفترة في جمع ما كتبه والدي، وقضت معظم وقتها بين الكلية والمكتبة الوطنية ومكتبة الخاقاني ومكتبة الجامعة، تفتش في أرشيف الصحف التي لا فهارس لها، قاضية ساعات طويلة من وقتها، وفي كثير من الأحيان تجد مقالات لآخرين من آل شرارة ولا تجد شيئاً لوالدي، فينتهي التفتيش بخيبة الأمل وضياع الوقت. ولكن بالرغم من ذلك فقد استمرت على جمع ما نشرته الصحف والمجلات له من مقالات وقصائد خلال خمسة عقود، ثم سافرت الى لبنان أثناء الحرب الأهلية لجمع أعماله .

وذكرت في رسالتها المؤرخة ١٩ / ١٠ / ١٩٧٩ :

(في الحقيقة أن جمع مقالاته عملية ممتعة ومتعبة في الوقت ذاته. متعبة بسبب عدم وفرة أجهزة التصوير الجيدة، فكثيراً ما يستغرق مقالاً من صفحتين أكثر من ساعة في تصحيحه لكثرة البقع البيضاء والكلمات غير الواضحة. فأحياناً أصور الورق ثلاث مرات لأصلح العبارات الممحية . . . ومع ذلك أنا مصممة على إتمام جميع أعماله خلال السنة الحالية لكي أستطيع طبعها في أقصى حد. ومما يساعدني في العمل عدم وجود عمل لدي في الجامعة ولهذا فأنا متفرغة لجمع المقالات، وفي الحقيقة أن مثل هذا العمل يحتاج الى تفرغ تام .

إن مقالات الوالد تعيد ذكراه حية أمامي وتجدد المأساة بكل أبعادها فعندما أقرأ له يعلو صوته من بين السطور وأسمعه كما اعتدت في السابق وتأخذني الذكريات الى الماضي القريب ولا أصدق أنه أصبح ماض لا غير . . الجرح عميق وليس من السهولة دمله والذكريات في بيتنا كثيرة من الصعب نسيانها، ولذلك تؤلمني قراءة مقالاته، ولكن مع ذلك سأتفرغ لجمعها وتهيئتها ضرورة يجب انجازها) .

قضت عامين بعمل متواصل لإنهاء هذه المهمة، بالإضافة الى المشاريع الكثيرة المختلفة التي حاولت تنفيذها في الكتابة والترجمة. ولم يدع لها هذا الاهتمام والانغمار بالعمل مجالاً للعناية بالدار وعائلتها، ولم يعد لها الاحتمال على متاعب الأطفال، وشعرت إنها لا تعطي طفلتيها الوقت الكافي، لضيق وقتها وكثرة مشاغلها ومشاريعها، بل أهملت الدار تماماً، معتمدةً على الآخرين في عناية ورعاية ابنتيها. وشعرت إنها (لا تكاد ترتاح إلا إذا مرضت) و (أن التربية تحتاج الى شيئ من الحزم والنظام الدائم اللذين لا يمكن ضبط مها وزينب بدونهما)، وبدأت بهذه المحاولة ولكنها لا تستمر عليها و (هنا نقطة الضعف التي تستغلانها. التربية تحتاج الى أعصاب هادئة ومرونة وتوجيهات منسقة، على كل بدأت تضطرني الظروف الى تعليمهما على العمل والنظام وأخذنا تحققا تقدماً لا بأس به في هذا المجال) .

وفي بداية شهر أيلول عام ١٩٨٠، بدأت الحرب العراقية الإيرانية في الحدود الجنوبية من العراق، وأغلقت الجامعات والمدارس، وهيمن القلق والخوف على طفلتيها وكتبت في احدي رسائلها الى شقيقتها مريم :

(لا أستطيع ترك زينب ومها وحدهما الآن في البيت خوفاً من حدوث غارات، إن زينب تخاف كثيراً وتتخشب وتصفر من الفزع، إنها كما تعهديها متعبة في كل شيئ. أما مها فقد بكت في اليوم الأول وأوضحت لها أن لا داعي للخوف ولن يأتوا قربنا وأصبحت الأمور طبيعية بالنسبة لها. أما زينب فاعتادت الآن ولكن إذا كانت أصوات المدافع المضادة قريبة فإنها ترتبك وتجلس خائفة قربي وكانت أحياناً تنام من شدة تعب أعصابها، وتقول نيالها لندن ما بيها حرب) .

وكان صدور كتاب والدي (المتنبي بين البطولة والاغتراب) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، شمعة أضاءت الأجواء القاتمة التي عاشتها، وساورها شعور بالفرح والألم، فكتبت في نهاية عام ١٩٨١ :

(صدر كتاب المتنبي لوالدي ووصـــلتنا النسخة الأولى . . . اعتراني

شعور من الفرح والحزن عندما رأيته، بل كدت ابكي، أما محمد فقد بكى فعلاً. إن كتاب المتنبي بالذات يهزني لأنه كان ينوي طبعه وبدأ بجمعه ولكنه لم يره. لذلك تملكني الألم لرؤيته وتمنيت لو رآه هو ايضاً . . . لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. على أية حال المهم أن الكتاب قد صدر، وبهذا الشكل الجميل الذي يجذب النظر، كان والدي سيفرح كثيراً لو رآه بهذا الشكل، وقريبا سيصدر كتابه الثاني كما علمت)* .

أصبح محمد يقضي وقتاً أطول في المستشفى والعيادة، بعد إعلان الحرب العراقية الإيرانية، فقد زادت الخفارات على الأطباء، وخلت الحياة العائلية من الضحك والفرح الذي كانت تتمتع به، وخيم عليه القلق والتعب المتواصل، فكتبت حياة عن ذلك : (محمد عنده خفارات كثيرة في الطوارئ وهو متعب وقلق أكثر من السابق على كل حال أصبح القلق حالة عامة بدل أن يكون جزئية أو نادرة ومع ذلك فنحن نحاول الاستمرار في عملنا) .

وما زاد الأمور تعقيداً وفاقم شعورها بالوحدة، هو سفري بصحبة زوجي رفعة الى الولايات المتحدة، وخاصةً لأنه لم تكن هنالك مدة محددة لعودتنا الى العراق. فكتبت رسالة لشقيقتها مريم بثت فيها أحاسيسها ومعاناتها لفراق آخر. إذ كنت شقيقة وصديقة لها جمعنا معاً التقارب الفكري .

(ستسافر بلقيس وأبقى وحدي ولا أدري لماذا أشعر بألم قوي لسفرها هذه المرة، ربما لأن الفترة طويلة، ربما لأنه من الصعب أن أراها في الخارج وربما بسبب التقدم في العمر وكثرة الهموم والقلق والمشاكل التي تحيط بنا كخيوط العنكبوت، على أية حال الزمن كفيل بأن يجعلنا نعتاد على أي شيئ مهما عظم .

(*) صدر بعنوان ((نظرات في تراثنا القومي))عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت ، ١٩٨٢) .

ذهبت أمس لوداع بلقيس ورفعة وكان لديهما جمع غفير من الأقارب والأصدقاء، كان الجميع مبتهجين فالوداع عبارة عن حفلة شرب وسمر لهم وتأدية واجبات اجتماعية، أما أنا فكان الألم يعصر قلبي بشكل لم أشعر به منذ وفاة والدي) .

بعد أن تركتُ العراق، أصبحت كتابة الرسائل والتلفون واسطة الاتصال الوحيدة بيننا، فكتبت لي : (هكذا شاءت الظروف أن نتحدث على الأوراق أو عبر أجهزة التلفون دون أن تكتحل أعيننا برؤية بعضنا بعضاً) .

ولم تمضي إلا ستة أسابيع على سفري، حتى علمت بوفاة محمد المفاجئ، فقد أصيب في منتصف كانون الأول عام ١٩٨٢ بجلطة في الدماغ، وتوفى على أثرها بعد خمسة أيام .

كان محمد مرهف الحس، معجباً بعدد كبير من الشعراء والكتاب القدامى والحديثين، وكان ديوان المتنبي لا يفارقه في الشدائد والمحن، فقد شاركه وسادته حتى عندما أجريت له عملية في مدينة (شيفيلد) في انكلترا، ولم يفارقه أيضاً في تلك الفترة العصيبة من حياته بعد إطلاق سراحه وانغماره بإجراء العمليات المتواصلة للجنود الجرحى المنقولين من الجبهة .

كنت قلقة على حياة بعد وفاة محمد، فقد أصبحت وحيدة في مجابهة مشاكل الحياة اليومية، ومسؤولة عن تربية طفلتيها مها وزينب. وليس هنالك من يواسيها ويشد على أزرها في ساعات الوهن والتعب. إن جميع أعضاء عائلتها خارج العراق. وقد أبرزت تلك الوحدة والفراغ اللذين كانت تعاني منهما في روايتها (بريق ومض بعيد) .

(أحسست بالفراغ والضياع بعد موته وأدركت عندئذ فقط معنى قول أمي الرجل هو شمعة البيت. لقد ساد فيه الصمت والوحشة وبدت غرفه معتمة رغم دخول ضوء الشمس إليها كالمعتاد وبهتت حتى أثاثه كما لو أنها عتقت فجأةً، صرت أراه كبيت مهجور .)١٢

كما تجلت تلك الوحشة والفراغ في رسائلها، فكتبت بعد وفاته بشهر الى شقيقتها مريم :
(لقد تركت وفاة محمد فراغاً كبيراً في البيت . . . وكان موته مباغتاً لنا، ولكنها كانت ميتة مريحة له، فلم يشعر بشيئ ولم يخطر له الموت على بال، وانتهى في لحظة غير متوقعة. كل حدث يبدأ جسيماً ثم يخف مع مرور الزمن، ولا تترك لنا الحياة اليومية وقتاً للتفكير من الوقوف طويلاً عند المصيبة التي تحل بنا . . . وضعي ليس سيئاً، ولكني متعبة في الحقيقة، متعبة من الآثار الدفينة التي تركتها الصدمة في أعماق النفس. أخذنا نعتاد على الحياة لوحدنا، فتيار الحياة يجرف الإنسان شاء أم لم يشأ، ولا بد للحياة أن تستمر وتواصل مجراها المألوف. أن الموت يصدمنا لأيام، وحتى في تلك الساعات المُرّة يجول بفكر المرء تدبير الأمور اليومية ويأكل ويشرب وينام ويفكر في مستقبله وما سيفعله، هكذا خلق الإنسان ولعله لم يستطيع العيش لو كان على غير تلك الحال .
هكذا تجديني مشغولة بهذه الأمور وتصفية (تركات) المتوفي كما يسمونها الذي أصبح فعلاً ماضياً وتحول الى تاريخ في لحظات معدودات ولم يبق منه سوى أوراق تحتويها الاضبارات. أتذكر عندما ولدت زينب وجلبتها الى والدي للمرة الأولى نظر إليها وقال (كيف يبدأ الإنسان !) والآن أقول أنا (كيف ينتهي الإنسان !) ويتدفق تيار الحياة في سيره المعتاد وكأنه لم يكن موجوداً .
لقد تحدثت عن الموت كثيراً، لأن الموت المفاجئ يرفرف في أجواء هذا البيت للمرة الثالثة، كانت البداية مع الخادمة (كريمة) ثم أبي ثم محمد، الموت المفاجئ راحة كبيرة للذي يموت وصدمة كبيرة للباقين، والحياة دائماً تضم المتناقضات ولا غرابة أن تجتمع الراحة والصدمة معاً) .
أصبحت حياة تقضي وقت أطول مع ابنتيها، كأنها أحست بأن عليها أن تعوض عن غياب الأب في حياتهما. وكانت مهتمة بتربيتهما، فشكت في

احدي رسائلها عندما بلغت مها الحــادية عشرة من العمر وزينب التاسعة :

(أحاول تطوير اللغة العربية والانكليزية لدى مها وزينب والتطور لديهما بطئ . . . لأن الاندفاع الذاتي للمطالعة والتثقيف شبه معدوم لديهما، ولولا الإلحاح لما قرأتا شيئاً. مها أكثر وعياً من زينب وأحاول افهماها دائماً بأهمية تطوير هواية من الهوايات عند الإنسان مع حثهما الدائم على العمل). وشعرت بعد وفاة محمد أن الحياة اليومية استنزفت معظم وقتها وقلما أعطتها مجالاً للخلو مع ذاتها وتأملها والتفكير في مسيرة العمر الذي قطعته. لذا قررت كتابة ذكرياتها :

(لدي مشاريع كثيرة في الترجمة والكتابة. أحب أن أكتب ذكرياتي عن الأحداث التي مرت بنا ففيها أشياء تستحق التسجيل وأصبحت تاريخاً من ذكريات الماضي، لا بسبب مرور الزمن عليها فقط وإنما من جراء التغيرات الكبيرة وفي القيم والمفاهيم التي نعيشها، بحيث أصبحنا جيلاً له مكوناته الخصوصية ويشعرنا ذلك بقوة مرور الزمن وتضرم السنون وأننا (شخنا) ولو أنني لا أحس ذلك في قواي وتفكيري وإنما أصبحنا جيلاً له تفكيره المتميز ونظرته الخاصة. وأشعر بأننا أفضل من الجيل الحالي والناشئ ويذكرني هذا الصراع بين الآباء والأبناء فقد أصبحنا من (الآباء) الذين لا يرضون بتصرفات الأبناء وتفكيرهم ولا يقرونها. وهكذا نقلنا دولاب التاريخ الى المكان الخلفي في الحياة وأكاد لا أصدق أن الأعوام مرت بمثل تلك السرعة رغم أنها مليئة بالأحداث والحركة وأن عجلة الزمن دارت دورتها. ولكن كل ذلك لا يشعرني إلا بالتزايد العددي للسنين في عمري، أما تفكيري فأشعر بالقوة والاندفاع والإقبال الشديد على العمل. لا أدري ما الذي دفعني لكتابة مثل هذه الخواطر، لعلها الحياة الجارية فيما حولي التي تسير بخطى حثيثة سريعة وتتغير باستمرار بحيث لا يستطيع المرء إلا أن يتأملها أو يتطلع إليها ويرى أين موقعه فيها .

عندما أقرأ السياب، وأحب قصائده الأولى طبعاً، تتجسد أمامي أحداث الماضي وأغلق الديوان أحياناً واستغرق في الذكريات) .
وعندما كانت تشعر بالإعياء والتعب من الكتابة أو الترجمة، فإنها كانت تتوقف لفترة محدودة، وتكثر عندئذ من المطالعة وقراءة الكتب، إذ كانت القراءة تساعدها على رؤية النواقص فيما تكتبه لتعمل على تلافيه. فعندما أعادت قراءة كتب الكاتب الكبير طه حسين، أدركت النظرة الأحادية التي نشأت وتشربت بها. واكتشفت عمق كتابات العقاد، وشعرت أن الحياة أكثر تعقيداً ولها ظلال متنوعة، ولا يمكن اختزالها من خلال منظارين، الأبيض والأسود اللذين كانت ترى من خلالهما، فذكرت في رسالتها بتاريخ ١٥/ ١٩٨٦/٨ :
(الآن أقرأه برؤيا جديدة واستكشاف جديد لأبعاد تجربته الرائدة، تعجبني فيه النظرة الشمولية الى أمور الحياة. لقد نشأنا في جو ينظر نظرة أحادية الجانب الى الأمور، بينما الأبيض والأسود لا يشكلان قطبا الحياة المتنافرين، فالحياة ونفسية الإنسان وفكره ينطوي على بنية تركيبة متنافرة ومتجانسة تجمع مختلف الأضداد. وأشعر أنه فاتني الكثير وضيعت سنوات طويلة من عمري وأنا افهم هذه القضايا نظرياً ولكنني لا أفهمها عملياً مما أثر على تطوري وأخره. على كل حال ثمة مثل روسي يقول (أن تدرك الأمر متأخراً أفضل من أن لا تــدركه ألبتة) . . وأنا الآن في بداية الطريق، ولكن من سار على الدرب وصل وأعتقد أنني سأصل) .
كما كتبت عن العقاد :
(لم أكن أتوقع كتاباته على ذلك العمق والنظرة التحليلية النافذة والرؤيا الشمولية لمختلف مظاهر الحياة ومشاكلها . . . لقد كانت فكرتي مغلوطة عنه لأنها مستقاة من رأي والدي الذي كان لا يطيقه ولكنه أعمق من طه حسين والمازني وغيره من أدباء جيله، وأنوي الآن قراءة بقية كتبه) .

طالت الحرب العراقية الإيرانية، ونشر الموت أجنحته في سماء العراق وزادت الأعلام السوداء المنتشرة فوق سطوح الدور، وتواصل الندب والبكاء على الشباب الذين فقدوا في الجبهة وكتبت لي :

(الألم والفجيعة والمصائب غدت من طبيعة الحياة ونحن ندور في دوامة عاصفة مثيرة يشبه وضع لبنان ولكن من نوع آخر، ولكن الهرب منها ليس الحل الذي يريحني نفسياً، ربما لأن جذوري تمتد هنا، في هذه الأرض التي تغلي وتفور وتميت وتهلك ولكنها لا تقتل الأمل في النفس، وما دام الأمل والأماني موجودة والسعي لتحقيقها موجوداً، أشعر أنني بخير) .

ابتلعت تلك الحرب أجيالاً من الشباب، وأصبح الشعور السائد بين الطلبة شعور باللامبالاة، والخوف من إرسالهم كطعام لعجلة الحرب، فتعمد بعضهم الرسوب وإعادة السنة ليتمكنوا من قضاء مدة أطول في الدراسة تهرباً من التجنيد .

وشعرت حياة في تلك الفترة بانعدام التجاوب بين الأستاذ والطالب. وتألمت من ذلك الوضع وشعرت أن التدريس أصبح أقرب الى إضاعة الوقت فكتبت في إحدى رسائلها :

(التجاوب بيننا وبين الطلاب ضعيف، والرغبة في التعلم أضعف، ولذلك يشـــعر المرء بعبث الجهود المبذولة والعلم أصبح بضاعة خاسرة) .

ولكنها عادت وأعطت هؤلاء الطلبة العذر عندما شاهدت ما عانوه بعد عودتهم من معسكرات التدريب وقسوة الواقع الذي عاشوه. و(موت روح الخيال والأحلام في دواخلهم ومعها ماتت كل البدايات الجميلة عن الآمال والطموح، وتصدع الحاضر وأخذ ينهار أمام أعينهم وأنتشر غبار انهياره على الماضي والمستقبل واختلطت الأمور عليهم)١٣ .

لم يقتصر التدريب على حمل السلاح في العطلة الصيفية على طلبة الجامعات وإنما شمل المـــدارس الثانوية أيضاً، وذكرت أن ابنتها (مها تتدرب على السلاح وأوشكت على الانتهاء منها) .

وكانت تلك الفترة بالرغم من الحرب الطاحنة، فترة خصب في إنتاجها الأدبي في التأليف والترجمة. فكتبت عدة مقالات عن الشعر والمسرح، منها : (تأملات في الشعر الروسي ١٩٨١)، و(غريب في المدينة) ومسرحية (المفتش العام) ١٩٨٣ و(تلك أيام خلت (١) ١٩٨٧، وتلك أيام خلت(٢) ١٩٨٨)، و(يسينين في الربوع العربية ١٩٨٩) .

وفي الثمانينات نشطت في الترجمة، وذكرت في احدى رسائلها :

(الترجمة تسير أيضاً على ما يرام، والمهم في أي عمل الاستمرارية وعدم الانقطاع مهما كان الوقت المخصص لذلك العمل قليلاً فإنه يؤتي نتائج جيدة بفضل المواظبة والدأب على العمل) .

وذكرت في رسائلها عن الروايات التي بدأت بترجمتها والأعمال الشعرية للمؤلفين الذين لم تترجم أعمالهم لصعوبتها، فقد كان ذلك نوعاً من الامتحان والتحدي المستمر لقابلياتها وموهبتها الأدبية. (بدأت بترجمة بوشكين. إنني لا أنوي ترجمة الأعمال النثرية لكثرة ترجماتها، أما الأعمال الشعرية فلم يترجم منها سوى النزر القليل لأنه صعب ترجمته. ولكنني عقدت العزم على المضي في هذا العمل وقد أنجزت جزءاً لا بأس فيه حتى الآن) .

كما طبعت عدداً من الكتب عن اللغة الروسية (ديوان الشعر الروسي، ١٩٨٣)، و(مذكرات صياد، ١٩٨٤)، و(رودين، لـ تورغينيف، ١٩٨٥) و(الأفكار والأسلوب ١٩٨٦) و(مسرحيات بوشكين، ١٩٨٦) و(عش النبلاء، لـ تورغينيف، ١٩٨٧) .

كان في نيتها ترجمة جميع مؤلفات الكاتب الروسي (تورغينيف)، وأكملت ترجمة روايتين وبدأت بترجمة رواية (العشية)، لكنها عدلت عن إكمال المشروع لعدم وجود ناشر وسوق رائج لمثل هذا النوع من الكتب .

أصبحت رسائلها في تلك الفترة، مـــــملوءة بالشكوى من ضيق الوقت، والسرعة التي تمر بها الأيام، وانشغالها بمتطلبات المعيشة اليومية والإشراف على تربية ابنتيها (لا أدري كيف تجري الأيام والشهور

سريعاً حتى لكأنها تطير . . . منذ فترة وأنا أريد أن أكتب لك ولكن مشاغل الحياة اليومية تلفني في دوامتها السريعة وهكذا تنقضي الأيام متلاحقة بعضها تلو الآخر بسرعة عجيبة وتنطوي شهور ونحن لا نشعر كيف تصرمت رغم أنها مثقلة بالعمل والمشاكل أحياناً) .

لم تنقطع الفعاليات الثقافية والفنية بالرغم من ندرتها في العراق، واستمرت وكأن الحرب الطاحنة على الحدود غير موجودة، وحاولت حياة إيجاد الوقت لحضور تلك الفعاليات، إذ كان يقام سنوياً مهرجان بابل الفني الذي تحضره نحو (٥٨) فرقة أجنبية في شهر أيلول/ سبتمبر من كل عام بالاضافة الى بعض الفعاليات الثقافية التي تقوم بها بعض المعاهد الثقافية الأجنبية. (نقضي وقتنا في المطالعة والذهاب الى بعض المسرحيات والحفلات الموسيقية ومعظمها تعزف الموسيقى الكلاسيكية، وقد أصبحت مها وزينب على اطلاع عليها وأخذتا تشتريان الكاسيتات لسماعها، ويأتي أحياناً عازفون أجانب من فرنسا أو ايطاليا أو اسبانيا، ونحن نذهب إليها جميعاً . . . وهما تفضلان الاطلاع على النشاطات الثقافية والذهاب إليها على الزيارات) .

كانت تتحرى وتجمع معلومات موثقة وصحيحة قبل البدء بكتابة بحث أو مقالة، وذلك أوضح في رسائلها عن نازك الملائكة وبدر شاكر السياب عندما كتبت عنهما .

(عندي محاولة لكتابة ذكرياتي عن بعض الأشخاص الذين كانت لنا علاقات بهم وبدأت بنازك الملائكة وقد أوحتها لي صورتها المهدمة التي شاهدتها بالتلفزيون عندما حضرت في العام الماضي الى مؤتمر اتحاد الأدباء في بغداد . . . لم تستطع الحضور هذه السنة الى المربد بسبب مرضها وقد أصيبت بشلل جزئي ويصعب عليها الكلام، فالكلمات تخرج منها متقطعة بطيئة غير واضحة كما أخبرني أحد الذين قابلوها).

وعن بدر شاكر السياب :

أنا بحاجة ماسة الى أي شيئ يمكن أن تعرفوه أو تتذكروه عن الأشياء التي ذكرتها. فلم يكتب أحد الى الآن عن صلته بنا . . . وهذه فترة

مجهولة من حياته وموضع تساؤل الباحثين عنها ويعتبرونها من الحلقات المفقودة في حياته. هل تذكرين أين نشر قصيدته :

دمك المضاع وجسرك المنهار
والذكـــــريات وهذه الأخبار

أذكر أننا كنا في دار الوزيرية عندما صدرت ولكنني لا أذكر الجريدة .

وكذلك قصيدته التي مطلعها :

لك أن تنام ولي أنا الســهر
أيقر جنبي وهو يـــــحتضر

فهاتان القصيدتان لم تردان في ديوانه المنشور، والثانية ناقصة وتحت عنوان غير عنوانها في (أزهار ذابلة) .

وعندما صدرت المقالة التي كتبتها عن ذكرياتها عن بدر، في مـــــجلة (الأقلام) في نهاية عام ١٩٨٩ (لاقت صدى واسعاً لأن مثل هذه المعلومات تنشر لأول مرة، وشجعت بعضهم على كتابة ذكرياتهم. أخذت أجمع أحاديث الذين نعرفهم في تلك الفترة) .

حاولت حياة خلال عقد الثمانينات الحصول على جواز سفر، لكي يمكنها زيارة الأهل في لبنان وإيجاد منافذ أخرى للنشر، ولكنها لم تفلح بالحصول على موافقة على السفر .

فبالرغم من أن الحرب لم تمس أهالي بغداد فقد حُصرت في جنوب العراق ومناطق الحدود، ولكن بعد مرور عامين على الحرب، منع العراقيون من السفر، وحرمت بذلك حياة من زيارة أهلها في لبنان وانكلترا خلال عقد الثمانينات .

ومنع السفر ليس بالشئ الجديد على العراق والعراقيين، فالسفر حلم من الأحلام التي تداعب كل عراقي. وعند العراقي هو لـيس حق من حقوق الإنسان، وإنما منحه من السلطة. فالسفر الى خارج العراق سرّ مهم، لا يبوح به العراقي إلا في آخر لحظة من تركه البلد لأقرب مقربيه، خوفاً من عرقلته ومنعه من السفر، خشية من حسد الناس له .

ومشكلة السفر خارج البلد لها تاريخ طويل، فقد اتخذته السلطة في العهد الملكي سلاحاً لمنع المفكرين ومناهضي الحكم من الذهاب الى خارج البلاد، وطبق منع السفر على الشيوعيين واليساريين والديمقراطيين، ولم يكن باستطاعتهم الحصول على جواز سفر إلا بتقديم شهادة حسن سلوك، وهو ينطوي على التبرؤ من عقيدتهم .

وجاءت ثورة ١٩٥٨ على أساس إشاعة جو من الحرية والعدل، وإزالة مثل هذه القوانين التعسفية التي عانى منه الفرد العراقي، ولكن الحالة لم تتغير، وسخّرت نفس الطرق السابقة لمحاربة (أعداء الثورة) واستمرت نفس السياسة، ومنع من يسمون (بالعهد البائد) من السفر .

وفي انقلاب ١٩٦٣ القصير الذي لم يدم إلا بضعة أشهر، منع اليساريون والشيوعيون من السفر، وفي عهد عبد السلام وعبد الرحمن عارف، منع كذلك اليساريون والبعثيون من السفر، وخلال حرب ١٩٦٧ منع الشعب العراقي بأكمله من السفر، كأن سفر العراقيين سبب في خسارة الحرب واقتصر السفر على أعضاء حزب البعث وأصحاب الأعمال خلال عام ١٩٧٢، عند تأميم شركات النفط. ولا أدري ما علاقة التأميم بالسفر أو الحرب العراقية الإيرانية ؟ إلا لأنه سلاح لعزل الشعب العراقي عزلاً تاماً عن العالم .

واضح ذلك في رسائل حياة المتعددة خلال عقد الثمانينات عن صعوبة الحصول على جواز سفر والسماح لها ولابنتيها بالسفر، فكتبت في رسالة، بعد وفاة زوجها بأربعة أشهر تقريباً عام ١٩٨٣ :

(كنت أعلل النفس برؤيتكم في الصيف، ولكن عندما ذهبت اليوم الى الكلية وقدمت طلب السفر رُفض، لأن السفر لأسباب دراسية أصبح غير ممكن أيضاً. على كل حال ربما يحصل تغيير في هذا المـوضوع فهناك شائعات كثيرة بهذا الصدد) .

وقد رفضت ثانية بعد عامين فكتبت رسالة ١٩٨٥ :

(كنت أتوقع أن أراك هذا الصيف، بعد أن أكملت معاملة السفر، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن كما يقول المتنبي، إذ كل شيئ يتغير فجأة) .

وفي عام ١٩٨٦ عدلت عن تقديم طلب السفر عندما وجدت أملها ضعيفاً بالحصول على جواز سفر، وهذه الحسرة والغصة في منع الفرد العراقي من السفر تكررت، في عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٨ :

(كنت أتمنى أن أراك [أنا] ومها وزينب في العطلة وكانتا تحسبا الأيام الباقية ولكن جاء الرفض على غير ما توقعنا وقضينا يوماً حزيناً عند استلام الجواب. على أية حال ما باليد حيلة، وربما أحاول مرة أخرى في السنة القادمة) .

وأخيراً حصلت على جواز سفر بعد مرور عشرة أعوام من الرفض المتواصل للطلبات التي قدمتها للحصول على موافقة بالسفر، فكتبت في رسالتها المؤرخة ١٢ / ٢ / ١٩٩٠ :

(أخيرا أصبح الأمل في المجيء إليكم حقيقة ممكنة، بعد أن سمح للجميع السفر، وبدأنا حالما سمعنا البيان نحلم في السفر الى بلدان العالم القريبة منا. إن الحلم شيئ جميل، فحياة الإنسان تغدو جافة صلدة بلا حلم، فتتحطم روحه وعقله. كانت فرحة شارك فيها الجميع بحيث كان الناس في الكلية يهنئون بعضهم بعضاً) .

وسافرت حياة الى لندن مع ابنتيها لقضاء فصل الصيف مع شقيقتها مريم، ولكن لم تدم الفرحة طويلاً فقد شابها القلق عند اندلاع حرب الخليج، وقررت الرجوع الى العراق، وعادت في بداية العام الدراسي.

بعد حرب الخليج، أثيرت صعوبات السفر في وجه العراقيين في داخل وخارج البلد، وامتنعت سفارات العالم من إعطاء فيزا للعراقيين خوفا من اللجوء، " فمـــــــــــعظم السفارات لا تعطي فيزا، والأردن يغص بالعراقيين "، كما ذكرت في إحدى رسائلها .

وفي نهاية عام ١٩٩١، ذكرت لأول مرة في رسائلها عن المحّرَم، كانت هذه مشكلة جديدة بالنسبة لحياة، " ولكن السفر بالنسبة لمها وزينب غير

ممكن بدون رجل قريب، ولا أدري ان كنا نستطيع أن نتغلب على هذه المشكلة ".

فقد صدر مرسوم في تلك الفترة بمنع الفتيات والنساء دون سن الخامسة والأربعين بالسفر بلا مَحْرَم، والحجة في صدور مثل هذا المرسوم الغريب عن العراق، أن سوء الوضع الاقتصادي، أدى ببغض الفتيات الى التجارة بأجسادهن في الخارج. وبدل التحقيق في الموضوع من قبل السلطة، والنظر في كل قضية على حدة وإيجاد الحلول المناسبة، فإن أسهل الطرق وأقصرها بالطبع هو المنع. والآن ليس باستطاعة المرأة العراقية السفر دون مرافقة أب أو عم أو أخ .

واعتبر عدد من الناس موضوع المحْرَم " مهزلة "، لكنه في الحقيقة هو " مأساة " فقد عينت السلطة نفسها حامية شرف بناتها، ولم توافق حتى على الخال ليصاحب بنات أخته، لأن العرف القبلي لا يعترف حتى بالخال كحامي للشرف، إنها أهانه وضعة لأبسط حق من حقوق المرأة التي نصت عليها حقوق الإنسان .

بصدور مرسوم " المحْرَم " منع عدد كبير من نساء العراق من السفر، كما ارتفع رسم الخروج حتى وصل الآن الى أربعمائة ألف دينار عراقي، وهو مبلغ ضخم بالنسبة للفرد العراقي، عندما نعلم ان معدل راتب الموظف لا يتجاوز الستة آلاف دينار .

ومنع الضباط ومن لهم علاقة بالجيش من السفر بعد حرب الخليج مباشرة، ثم أضيفت إليها قائمة بالوزراء والمدراء العامين. وفي السنة التي تلتها، منع الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعة. وأصبحت القائمة طويلة لدرجة شملت معظم العراقيين، ولم يبق إلا العاجز والمتقاعد، والنساء فوق سن الخامسة والأربعين .

عندما حصلت حياة قي صيف ١٩٩٢، على جواز سفر، قررت الذهاب الى لبنان، بعد أن أغلقت أبواب النشر أمامها في العراق، وكان أول بوادر الحصار عندما كتبت في احدي رسائلها لي : " وقد تبين أنه لا يوافقون في الحدود أحيانا على إخراج أي كتاب أو مخطوطة للطبع،

فذهبت الى الرقابة في وزارة الإعلام وأخذت موافقة على إخراج هذه الكتب، ثم سقطت تأشيرة الخروج التي مدتها شهر واحتاج الى كتاب رسمي جديد من الكلية، فعملته وذهبت الى السفر وأخرجت تأشيرة جديدة، وهكذا وجدت نفسي في دوامة من العمل بحيث لا أستطيع حتى كتابة رسالة " .

ولم يكن باستطاعتها مصاحبة أبنتيها بسبب المحْرَم، ولذا كتبت في صيف ١٩٩٢ :

" هذه المرة الأولى التي أترك بها زينب ومها بمفردهما منذ وفاة والدهما، وأظن بعد مرور اليومين الأولين سيعتادان على فراغي وسيتعلمان الاعتماد على نفسيهما في إدارة شؤون البيت. إنها تجربة جديدة لهما والإنسان يتعلم من تجاربه ويزداد قوة وعزيمة " .

كانت تتوق في تلك الزيارة لرؤية عمي عبد اللطيف شرارة أثناء معاناته من مرض السرطان، لشعورها بالقرابة الفكرية، ولكن توفى قبل وصولها لبنان وكتبت قبل هذا :

" بودي أن أرى عمي عبد اللطيف وربما يكون قد مات وأنا أكتب هذه الرسالة، فالسرطان مرض خبيث فظيع والأفضل لمن يمرض به أن يموت بسرعة. وكنت أتوقع أن أتحدث معه بعد أن أخبرتني مريم أنه بصحة جيدة، ولكن كما يقول الشاعر : وتقدرون فتسخر الأقدار .

رغم قلة اللقاء به فإنني أشعر أنه أقرب أعمامي إليّ فكرياً. كان طيباً، له عالمه الذي خلقه لنفسه بعيداً عن أحقاد الناس وركضهم وراء المال وحسدهم، كان أسمى من كل هذا وقد أعـــطى كثيراً للناس وأظنه ترك أكثر من خمسين كتاباً مؤلفاً عدا الترجمة " .

أصبح السفر بعد حرب الخليج، بحد ذاته مشقة كبيرة، فهو متعب ومضن بعد أن شمل الحصار الطيران المدني. ولكي يصل المسافر الى عمان عليه التوقف في عدد من نقاط التفتيش بين البلدين، فيضل المسافر في مدة لا تقل عن خمس عشرة ساعة، وقد تستغرق الرحلة في بعض الأحيان خمساً وعشرين ساعة، إذ تعتمد على مزاج المسؤولين في نقاط

الحدود. فأن وصل المسافر في فترة غذاء الموظف المسؤول، فعليه الانتظار حتى الانتهاء من تناول طعامه، وإن كان المسافر محظوظاً تفتش أمتعته سريعاً، ومن سوء حظ المسافر إذا وصل أثناء راحة الموظفين، فعليه الانتظار حتى انتهاء المدة التي تتراوح بين ساعة أو بضع ساعات. أما إذا وصل بعد منتصف الليل، فعليه الانتظار حتى الصباح .

كما تعتمد معاملة المسافرين على مزاج شرطة الحدود، وينعكس سوء مزاج الشرطة بمعاملتهم السيئة للمسافرين. وليس وضع هؤلاء الشرطة أحسن من وضع الفرد العراقي، فرواتبهم قليلة لدرجة لا تكفي إعالة عوائلهم بضعة أيام. ويعوضون عن هذا النقص، بالتشديد على المسافرين المغادرين لبغداد والقادمين من عمان، بمشاركتهم الهدايا التي يحملونها الى أحبائهم وأقاربهم .

حاولت حياة ثانية الحصول على موافقة للسفر في عام ١٩٩٣، إلا إنها عدلت عن ذلك بعد ان سُرقت دراهم، وظل الحديث عن السفر في رسائلها حلماً بعيد التحقيق .

ذكرت في رسالتها عن سرقة دراهم بعد أن فقد الأمن في معظم أحياء بغداد " ومن حسن الحظ ان السرّاق لم يستطيعوا فتح الباب، فقد كسروا شباك الهول، وإلا لأفرغوا لنا البيت كله لو استطاعوا فتح الباب، فالحاجات الكبيرة كالأخشاب والثلاجات بقيت في مكانها ". هذا بالاضافة الى المعاناة من العيش بـــلا كهرباء، والعودة الى القراءة على ضوء الفانوس. فقد سرقت دور كثيرة أثناء قصف بغداد، واستغل اللصوص ستار الظلام للقيام لأخذ ما باستطاعتهم نقله .

وتطورت الحالة من سيئ الى أسوأ بمرور الزمن، وفُقد الأمن تماماً، ولم يعد باستطاعة الفرد ترك داره دون حارس أو كلب يقوم بالحراسة، وفي بعض الأحيان التجأ اللصوص الى سرقة الكلاب أو تسميمها. فيضطر أحد أفراد العائلة القيام بدور الحارس حتى عودة الآخرين. وأصبح السطو على الدور المتروكة أو المسكونة من كبار السن،

وسرقة السيارات، حالة مستعصية، وغالباً يكون من الصعوبة إلقاء القبض على الجاني لاشتراكه مع بعض رجال الأمن. فقد حُطمت بنية المجتمع التحتية تماماً، ولم يبق عرف أو قيم تحمي الفرد .

ولكن لم يكن حظ الأموات أحسن من الأحياء، فلم تنج المقابر من التخريب والتدمير والسرقة. وبدأت بعهد عبد الكريم قاسم، عندما نقلت مقبرة اليهود في منطقة (شيخ عمر) الى منطقة أخرى، وتم استملاك الأرض بمبلغ زهيد لإقامة مشروع برج للتلفزيون. ولم تنج القبور في هذا العهد أيضا، فقد نقلت قبور عوائل بكاملها من مقبرة الغزالي . إضافة الى أنها لم تسلم من سرقة اللصوص. وظهر لدى المجتمع العراقي لصوص متخصصون بسرقة الأكفان والتوابيت وبيعها في الأسواق بعد دفن الجثمان، أو حتى قبل ذلك. ولم ينج حتى طابوق القبور القديمة من السرقة. فاضطرت العوائل المتمكنة مالياً أو الموسرة بتعيين حارس دائمي لحراسة قبورهم .

وكان لمقابر مدينتي كربلاء والنجف القسط الأكبر من النهب والتدمير بعد حرب الخليج، وسارت (البلدوزر) بفتح شوارع واسعة بداخل مقبرة وادي السلام في النجف، للقضاء على الذين أخذوا منها ملجأ بعد حرب الخليج، معلنين تمردهم على السلطة. وكان قبرا والدي ووالدتي من بين القبور التي درست ولم يبق لهما أثر، ولوحق محمد شرارة في حياته وأخذ قسطه من السجن والنفي والتشريد، ولـــكنه ظل مخلصاً لهذا البلد الذي أحبه أكثر من مسقط رأسه، ولم يدر انه سيلاحق حتى في مماته ويصبح قبره من الدوارس .

استمر الاتصال بحياة من خلال الرسائل والتلفون، ولكن بعد مرور عامين على حرب الخليج أصبحت المكالمات التلفونية للاتصال بخارج البلد أمراً صعباً بل مستحيلاً في بعض الأحيان. كان بعضهم يقضي عدة أيام للحصول على مكالمة تلفونية. وكتبت لي :

((حاولنا الاتصال بك دون جدوى، لأن الحصول على خطوط شبه مستحيل، ونحن نضغط على الأرقام كلما جلسنا نتحدث في الغرفة

ولكننا وصلنا أخيراً الى درجة اليأس وعرفنا أنه من العبث المحاولة. في الحقيقة أردنا أن نطمئنكم علينا نحن بخبر والقصف بعيد عنا ومعظمه في أطراف بغداد)) .

بدأت حياة في بداية عقد التسعينات بتجربة جديدة. فلأول مرة تحاول كتابة القصة القصيرة، " أشعر أنني وجدت نفسي في الكتابة، لأنني منغمرة وملتذة بكتابة القصة. والعجيب أن كتابتها تحتاج الى ثقافة واطلاع واسع والى معرفة مفصلة بدقائق الأمور والحياة والأحداث، وعندما يصل عدد القصص الى عشرة سأصدر المجموعة القصصية الأولى وقد اخترت لها عنوان (همس الأعماق) .

كما بدأت في نفس العام، بجمع معلومات ومواد عن نازك الملائكة بعد ان قررت كتابة سيرتها، ولكنها لاقت صعوبة على ما يظهر، فلا يزال مجتمعنا التقليدي غير معتاد على الكتابة الصريحة، بعد أن التقت أخوات نازك كتبت :

((يبدو إنني لن أستطيع أن أكتب سيرة حياة نازك، لأن كثيراً من الأمور حتى البسيطة منها مثل مرضها الحالي لا تقبل أخواتها أن أتي على ذكرها. ولهذا أفكر أن أكتب صفحات من حياتها بعد أن جمعت مادة لا بأس بها عنها)) .

وقبل صدور كتـــاب (صفحات من سيرة نازك) نشرت فصلاً منه في جريدة الجمهورية، واعترضت عائلة الملائكة عليها :

((جاء . . . خال نازك، بسبب إنني كتبت عن (القراية) عندهم وقلت أن عمتهم أو خالتهم مريم تقرأ فيها. فثار آل الملائكة وآل كبة لهذه الأهانة ! فقد توافدوا علية ساخطين من نشر مثل هذا الخبر لأنها هي التي تدير القراية وتشرف عليها، على كل حال كنت قد أطلعت أخوال نازك على ما كتب وصححت هذه العبارة غير ان المقال كان موجوداً في الجريدة ولم يطرأ عليه تغيير. وأخبرته أنني صححت ذلك وسوف تصدر بالكتاب بشكل صحيح)) .

كما ذكرت عن تلك الصعوبات في مقدمة كتابها (صفحات من سيرة نازك) :

((جمعت مادة غزيرة خلال تلك المدة ومع ذلك ظلت فترات من حياتها شبه مجهولة لي ولا سيما فترة الستينات التي لا أملك حولها سوى معلومات قليلة مبسترة لا تتفق مع طبيعة الكتاب الذي أضعه عنها. وقد واجهتني مشكلة كبيرة أخرى لم ألتفت أليها عندما شرعت في عملي، وهي حساسية وضع المرأة في مجتمعنا وكثرة القيود التي تثقل كاهلها. إن تناول الحياة الخصوصية للمرأة أمر لا يتقبله الفرد ولا المجتمع عندنا. فما أكثر الأمور العادية التي تعتبر عيباً وينبغي ان لا يأتي المرء على ذكرها. لقد تضخم حجمها أمام ناظري الى درجة خيل ألي أن وجودنا نفسه في الدنيا نوع من العيب. صارت كلمة عيب تدق رأسي كالمطرقة وتكاد تأتي على كل جهودي وتحطمها. عيب أن تحب، أن تغني، أن تمرض، أن تطلّق، أن تظهر عواطفها . . . أن . . . أن . . . ووجدت الأصفاد الاجتماعية ترن بكل ثقلها في مسمعي وأنا أنقل خطواتي بينها بحذر وخوف، وضقت ذرعا بهذه الحال واعترتني الحيرة واليأس الى درجة فكرت أن أصرف النظر عن كتابي نهائياً وأتحرر من احتمال الكتابة سهواً عما يعتبر عيباً. غير ان المادة المجتمعة أمامي في أكثر من مـلف كانت تتطلع ألّي بعتاب وتدعوني أن أواصـــــــــــل العمل. وكنت بدوري أحس بالألم وأدرك أنني إذا تركتها فسيكون ذلك الى الأبد، وسأطويها الى غير رجعة ويذهـــــب كل شيئ أدراج الرياح))١٤ .

عندما صدر الكتاب (صفحات من سيرة نازك الملائكة) لم تسلم من النقد، فقد لاقى مدحاً من بعضهم ونقداً من الآخرين لاعتقادهم انها لم توفِ بحق نازك، ولم تكتب عن دور الحب الذي كان له دور مهم في حياة نازك. كما لم تسلم من غضب آل الملائكة وعدم ارتياحهم .

((عندما كنت أترجم وأكتب مقالات في النقد لم أكن أدرك الهجوم الذي يلقاه الأدباء. غير أنني الآن بدأت أحس بلسعاته. أخت نازك زعلانة

لأنني صورتها بشكل تابع لها، وحاولت أن أفهمها أن الجميع فيه توابع لأنه لا يدور حولهم، وإنما هو مكتوب عن نازك ولكن دون جدوى .
أما قصصي فقد لاقت نقداً مدمراً من النقاد، غرضه أن أترك كتابة القصص على ما أعتقد، أما القراء فقد كانت القصتان اللتان نشرتا موضع أعجاب الجميع، وهذا وحده كاف لأنني أكتب للقراء وليس للنقاد الذين لم أتخيل أنهم يتحيزون بهذا الشكل، ويضربون الحصار حول الكاتب الى درجة خنقه. لو لم يكن بوسعي الذهاب الى لبنان لكنت في حالة ضيق شديد لأن الأبواب مقفلة في وجهي)) .
بالرغم من النقد اللاذع الذي لاقته من بعض النقاد، قررت ألا تعود الى الترجمة بل استمرت في الكتابة :
((في الحقيقة لا أنوي العودة الى الترجمة . . . إنني أفضل الكتابة وهي أكثر بقاء من الترجمة التي أعتبرها مرحلة في حياتي مضت. وربما أعود أليها من يدري! إن المقالات التي نشرت من كتاب نازك في جريدة الجمهورية كان لها صدى كبيرا في جمهور القراء، والحقيقة أن الناس لم يعتادوا على قراءة سيرة كاتب من الكتاب بهذا الشكل التفصيلي والروائي، أي أشبه بسرد القصة، هذا النمط ما زال يفتقر إليه الأدب العربي، فالسيرة تكتب بشكل وقائع جافة ولا يعرفون شكلاً آخر)) .
شعرت في السنوات الأخيرة بالتعب الذهني السريع، وشكت في رسائلها من هذه الظاهرة، فكتبت في صيف ١٩٩٣ :
((لدي مشاريع كثيرة للكتابة والمشكلة التي أعانيها هي سرعة التعب الذهني ومع ذلك فإنها لا تعيقني عن العمل. في الحقيقة أن هنالك كتباً كثيرة أحتاج الى قراءتها، ولكني لا أجد الوقت الكافي، إضافة الى أنني سريعة التعب حتى في قراءة الروايات وبطيئة أيضا، ولكنني أستوعب بشكل جيد. إنه العمر الذي قطعت منه شوطاً بعيداً ولو أنني كنت سريعة التعب في الماضي أيضا وأظن أن مرض التيفوئيد في طفولتي قد أثر عليّ . . . الكتابة كالحرفة تحتاج الى القراءة الدائمية والعمل المتواصل. أنني أطالع كثيراً من كتب النقد الأدبي والروايات والقصص

وكتب التدريس واللغة العربية وغيرها. وهناك كتب كثيرة أحتاج الى قراءتها، فالمعرفة كالبحر مهما اغترفت منها تبدو قليلة، بدأت أقرأ إمرسون، وقد أعجبتني آراءه والأسلوب السلس الشاعري الذي يكتب فيه، بحيث يحس المرء أحياناً أنه يقرأ قصيدة وليس فلسفة، وفهمت سّر إعجاب نازك به، فهو أديب وشاعر وإدراكه وفهمه لتفاصيل الحياة الإنسانية والطبيعة والله يثير فكر الإنسان ويجعله يتأمل)) .

في تلك الفترة، قصف العراق ثانيةً بعد حرب الخليج في نهاية عام ١٩٩٢، واعتبرته السلطات الأمريكية قصفاً تأديبياً، وأختلط هدير الطائرات بالرعد، فكتبت حياة في رسالتها لي :

((نزل اليوم مطر غزير، وكثرت الشطوط في الشوارع، ولم ينقطع حتى الفجر . . عندما كان الرعد يقصف تذكرنا أيام الحرب حيث القصف شبيه بقصف الطائرات تماماً. وكانت عندما تمطر وتقصف تلتبس علينا فلا نعرف أنسمع هدير قصف الرعود أو الطائرات. ويبدو إن هذه الذكرى لن تزول أبداً من ذاكرتنا .

والقصف بعيد عنا ومعظمه في أطراف بغداد، ومع ذلك فنحن لا نخرج إلا الى الدوام من باب الاحتياط، ونأخذ ما نـــــــــحتاج من السوق من المحلات التي قربنا . . . الناس لن يعودوا يخافون كالسابق فسماع صوت القصف وهدير الطائرات صار شيئاً اعتيادياً لكثير من الناس، ولو أن الشعور بالقلق باق)) .

بعد أن وجدت أبواب النشر مغلقة أمامها، بدأت بتجربة جديدة، واتجهت الى كتابة الرواية، بعدما كانت تكتب القصص القصيرة، لم تكن في بادئ الأمر متأكدة من هذه التجربة الجديدة، فكتبت في رسالتها تقول :

" أكتب الآن قصة طويلة بدأتها منذ شهرين ولا أدري متى سأنتهي منها، ولست مستعجلة عليها، لأن نشرها غير ممكن مع غلاء الورق وصعوبة الطبع في العراق وخارجه. وجرت تغيرات في اتحاد الأدباء، فقد جاءت هيئة إدارية من الشباب وكذلك الصفحات الثقافية في الجرائد

ومجلة (ألف باء) يديرها الشباب، وتوارى الكتاب الشيوخ الى الصفوف الخلفية .
لا زلت أكتب في الرواية التي لا أدري كيف ستكون لأنها هي التي تقودني بدل أن أقودها، وربما أنتهي منها مع حلول الصيف. إنها تجربة جديدة وجميلة وممتعة وغير مأمونة النتيجة ولكنني أجد متعة في كتابتها وصارت جزءاً من حياتي " .
بدأت آثار الحصار الاقتصادي تضغط على أهل العراق، وتشد بحبالها على خناقهم، واختفت من الأسواق المواد الغذائية الضرورية والأدوية، وعاد العراق الى عهد التموين كما كانت الحالة أثناء الحرب العالمية الثانية، وفقدت مواد الترف، وأصبحت علبة الشوكولاتة هدية مهمة تستحق الحديث عنها، فكتبت في بداية عام ١٩٩٤ :
((أما الشكولاتة فإنها تلذ العين والفم. إنها جميلة أنيقة لذيذة الطعم جميلة الألوان. صار أكل الشوكولاتة من الأمور الغريبة في حياتنا وتمثل نوعاً من التغير الحلو والتجديد وتبعث الدهشة في العيون لمرآها، ولا سيما عندما تكون بهذا الشكل الفني الرشيق . . . كان بودنا أن تكون حتى الأوراق شوكليتا لأننا نذوقه بالمناسبات في هذه الأيام)) .
كما انقطعت بعض الخضروات، وأصبح من الصعب الحصول عليها بسهولة، ((المشكلة هذه السنة صعوبة الحصول على الخضرة بكل أنواعها لقلة وجودها بالسوق. والظاهرة الغريبة أيضا أنها تتلف في الثلاجة اذا بقيت لأسبوع أو أقل . . . وأغبش للحصول على المواد، ومع ذلك لم نشم رائحة الطماطة (البندورة) منذ شهر تقريباً، على كل حال نحن ندّبر أمورنا بالبدائل ولكننا نصرف كثيراً من الوقت في هذا الجو اللاهب)) .
وكمساعدة لأساتذة الجامعة فقد خصص لهم شهرياً مقدار من المؤونة، ولا أفضل من وصف حياة لتلك الهبة في رواية (إذا الأيام أغسقت) في إذلال المبدع والمثقف حتى في أسلوب استلام تلك الهبات الصغيرة التي أنعمت بها الدولة عليهم في نهاية كل شهر " يقفون بطابور طويل،

ينتظرون ساعة أو ما يزيد عنها أحياناً حتى يأتي دورهم " وإن تأخر أحدهم ضاعت عليه الهبة، والهبة تعادل (٥) كيلو غرامات من اللحم، أما الآن فقد تلاشت وأصبحت لا تشتري أكثر من كيلو حمص .

((ان إذلال الوقوف في الطابور، وما يفرض علينا من كتابة أشياء لا نرتضيها وتخالف أفكارنا ولكننا سنؤديها مرغمين مقابل ثمن الكيلو غرام من الحمص . . . نقف على أبواب بأفواه خرساء وأرواح خائفة وعيون منكسرة، منتظرين تلك القطرات التي لا تروي ولا تغني من جوع)) .١٥

في عام ١٩٩٤، أكملت ابنتها مها دراستها الجامعية، وحاولت التفتيش عن عمل، فقدمت طلباً للتوظف في وزارة النفط، وقبلت بعد المقابلة التي أجريت لها، ولكنها رفضت من قبل الوزير، لأنها غير منتمية لحزب البعث ولأن والدتها حياة شرارة. تألمت حياة من تلك المعاملة وكتبت لي رداً على رسالتي : ((إن العمل كما تقولين ضروري لمها، فالبقاء في البيت ليس من طبيعتنا، فنحن معتادون على العمل. ولكن الظروف تبدلت كثيراً يا بلقيس، وأنت بعيدة عن البـــــلد ولا يمكنك أن تكوّني صورة واضحة عنه مما تسمعينه من الناس. فالعمل لا يعود بفائدة مادية ولا علمية بالنسبة للوظيفة التي يمكن أن تقوم بها . . . لم تعد الوظيفة كما كانت في السابق، ونحن في وضع صعب ولكنه ليس من صنع أيدينا. وأنا أريد لمها وزينب أن تعتمدا على نفسيهما لأنه لا يوجد سند لهما غيري، ولكن الحياة لا تجري وفق رغباتنا. قد تتبدل الأمور في المستقبل ويصبح العمل ممكناً، والإنسان يعيش دائماً بالأمل، ونحن نأمل أن يتغير الوضع بعد رفع الحصار وتعود الحياة الى مجراها الطبيعي)) .

واتجهت مها في تلك الفترة بعد أن أغلق باب العمل الحكومي أمامها للقراءة ودراسة الأدب واللغة العربية بعد أن كان اتجاهها علمياً، وانغمرت في قراءة الكتب الأدبية والنقدية، ودراسة النحو في محاولة لكي تعد نفسها للعمل في الصحافة .

وشعرت حياة بنوع من الراحة، لما لمها من حاسة أدبية مرهفة، كانت مسرورة من اتجاهها، خاصة إنها بدأت تخطو خطى والدتها في الكتابة : ((مها فرحة لأنها بدأت بكتابة القصة القصيرة، وقد كتبت قصتين حتى الآن وتنوي البدء بالقصة الثالثة. والقصتان مستواهما عالٍ وسوف تكون قصصية ممتازة لها مكانتها في دنيا الأدب. في الحقيقة لقد بدأت الكتابة بسرعة بالنسبة لقراءتها الأدبية التي بدأتها قبل ستة أشهر بشكل مركز ودراسي، ولم أكن أتوقع أن تبدأ بالقصة وإنما بالمقالة لأنها أسهل . . . !

مها دقيقة الملاحظة وتستطيع أن تستخلص جوهر الأشياء عندما تقرأ كتاباً، ولها نظرة ثاقبة للأمور، وقد زادتها كتابة القصة حماسة في تطور لغتها العربية . . . إنني مسرورة ايضاً لأنها اكتشفت موهبتها الأدبية وهي ما زالت شابة، فقد كانت تظن ان اتجاهها علمي، وكانت تقرأ الكتب العلمية وحدها. وعندما بدأت تقرأ الكتب الأدبية كنت أستغرب من حساسيتها المرهفة في اكتشاف جوانب القوة والضعف في الكتاب، وذات مرة تساءلتُ لماذا لا تكتبين ما دامت لك هذه القدرة الأدبية التي تفوق كثير من النقاد، وقد كان هذا التساؤل بداية السير في الطريق الأدبية)) .

أما زينب فوقع على عاتقها مهمة تختلف عن مهمة مها، فعادت الى جمع وتصنيف كتب جدها ثانية بعد أن فُقِدَت خمس كتب بسبب الحريق الذي أصاب آنذاك دار النشر في لبنان، فكتبت في نفس الرسالة :

((زينب مخبوصة في نقل مقالات جدها، وهي تقوم بتحقيقها أيضاً، فعندما يذكر أبيات شعر لأحد الشعراء فإنها تعود الى ديوانه، ولذلك تحوط بها دواوين الرصافي والمعرّي وعلي الشرقي وغيرهم. وتريد أن تضع هوامش وتذكر أسماء القصائد التي تركها أبي من غير إشارة، وقررتُ أن أنزل أسمها مع اسمي على الكتب التي لم تصدر حتى الآن، لأنها تقوم بتحقيقها وتدقيقها، وهي تعمل بهمة ونشاط في كتب جدها كعادتها عندما تقبل على عمل أو أي شيء)) .

برغم الانغماس في القراءة والكتابة، فإن رتابة الحياة وضيقها في بغداد أخذت تؤثر عليها، وشعرت بميكانيكية الحياة التي أصبحت لا طعم لها ولا حلاوة، وكتبت بردها على رسالتي التي وصفت فيها جمال الطبيعة في الخريف في الولايات المتحدة :

((نحن نتمتع بالطبيعة بالتمشي على السطح العالي في البيت ومراقبة الغروب الذي يتخذ لوحات مدهشة بين لحظة وأخرى عندما تكون بعض الغيوم في السماء. وكنت أتمنى لو أعرف التصوير، لأمكن الخروج بصورة مدهشة لغروب الشمس في بغداد . . . نحن عائشون، نأكل ونشرب وننام ونذهب الى العـمل ونقرأ ونثرثر، وبذلك نعرف أننا أحياء)) .

واستغربت من أنها تقضي فترة المشي على سطح الدار، فقد كان المشي هوايتها اليومية، التي تقوم بها بترويض الجسم والنفس. فقد اضطرت الى ذلك، بعد الحادث الذي ألم بزينب عـــند محاولتها عبور الشارع في

احدى الممرات المخصصة للعبور، فبدل أن يقف سائق السيارة، استمر بسرعة محاولاً إخافة زينب، فسقطت في الشارع متجنبة السيارة. أصبح هذا الأسلوب أحد أساليب التحرش بالفتيات ومضايقتهن. أدت تلك الحادثة الى تجنب التجول أو المشي، حتى في الشوارع القريبة المحيطة بالدار. وحلت هذه المشكلة بالمشي على سطح الدار .

وفي تلك الفترة بدأت آثار وجود (اليورانيوم غير المخصب) الذي استعمل في الصواريخ الأمريكية في حرب الخليج على العراق، بالظهور في المياه والتربة والخضروات والأزهار، بالإضافة الى وطأة الحر وقسوة صيف ١٩٩٦ فكتبت :

((قضينا صيفاً مزعجاً، يختلف عن الصيف الماضي. كانت درجات الحرارة مرتفعة والعرق يسبح على أبداننا باستمرار، تلوث الجو من أثر المواد الكيمياوية في حرب الخليج. إضافة الى أنواع الحساسية المزعجة التي بدأت تظهر عندنا مع تغير الفصول، وذلك بسبب تلوث الجو على ما يظهر. فقد أخذت شجيرات الورد (الجوري) تصفر أوراقها وتحترق في الصيف وكذلك بعض الأشجار ويبدو أن الجو أخذ يؤثر على المزروعات أيضا، فلأول مرة كانت الباقلاء الخضراء يظل قسم منها متخشباً لا يستوي مهما غلي)) .

وزادت صعوبة الحياة بمرور الزمن، وتفاقمت المشاكل اليومية والمعاشية، بالإضافة الى المشاكل التي جابهتها حياة في الجامعة، فقد شعرت من إنها مراقبة في حركاتها وسكناتها، وكما ذكرت في روايتها (إذا الأيام أغسقت) أصبح (تدريب النفس على تحاشي زلات اللسان وتعلم لغة الصمت) هو القاعدة، وطلبت ألا تبعث الرسائل عن طريق عنوانها في الجامعة، بعد أن فتحت رسائلها مرات عديدة من قبل مسؤول أمن الكلية لاعتبارها من المشكوك في ولائهم ولأنها غير حزبية، فكتبت : ((أنت تعرفين أن وضعي مختلف عن الآخرين، ولا يمكن مقارنتي بالآخرين)). وكانت في بعض الأحيان لا تستلم رسائلي .

وأحست ان ليس بإمكانها الاستمرار على التدريس في هذا الجو الخانق، الكالح، والمضايقات المتواصلة، التي تعرضت لها، فقدمت طلباً بإحالتها الى التقاعد، وعندما رفض طلبها، انقطعت عن الذهاب الى الكلية، واعتبرت مستقيلة، فحرمت من أتعابها وخسرت خدمة ستة وعشرين عاماً، وذكرت في احدي رسائلها في عام ١٩٩٦ ((كان وجودي في الجامعة أوله مسك وخاتمته مسك)) .

فكرت حياة في أخر منفذ لها في التخلص من هذا الإحباط الذي أحاط بها هو ترك العراق، بعد اعتبارها مستقيلة من الجامعة. كان هذا آخر شيء خطر على بالها، إذ كانت ضد الهجرة وترك بلدها. فالعراقي بطبيعته لا يحب الهجرة، ويفضل الإقامة في بلده مهما قست الظروف عليه، ولكن ظاهرة الهجرة وترك البلد وإيجاد لقمة عيش في بلد غريب بعيد عن وطنه، أصبح القاعدة، وأصبحت أمنية كل عراقي ترك ما يسمى بالوطن .

قدمت حياة عندئذ عريضة موجهة الى رئيس الجمهورية طالبة السماح لها بالسفر، ولابنتيها اللتين لا يسمح لهما بالسفر بلا مُحْرَم، وبعد أن قدمت العريضة الى الجهات المختصة، طلب منها إعادة كتابة العريضة بشكل ابتهال وتضرع للرئيس وليس كحق من حقوقها، فرفضت حياة تقديم مثل هذا الطلب الذي اعتبرته اهانة لحقها وكرامتها، كأن كل حق من حقوق الفرد أصبح هبة أو مكرمة، وشعرت بعجز أمام سور شاهق، طوقها وأحاطها من كل صوب .

طوق هذا السور الفرد العراقي وجعله يشعر أنه يعيش داخل سجن. والسجن تحيطه عادة جدران عالية بأسلاك شائكة مكهربة منعا للسجين من الهرب، أما العراق فإن حدوده أسوار السجن الكبير، بشرطته ورجال أمنه المسيطرين على كل منفذ من منافذ الحياة اليومية للفرد العراقي. ولا غرابة في محاولة الفرد العراقي بكل جهده الإفلات ولو من كوة صغيرة من خلال السور الذي كبّل حـــياته بقيود ثقيلة في جميع

مجالات الحياة اليومية ليرى بصيصاً من النور. فالسور يلاحق الفرد أينما حلّ، في المدرسة والدائرة والسوق والشارع وحتى في عقر داره .

دفع الشعب العراقي والفئة المثقفة والمتعلمة ثمناً باهظاً خاصة منذ حرب الخليج، فالحصار الاقتصادي طوّق تلك الفئة ونخر أحشاءها، وقد صورت حياة الجوع تصويراً دقيقاً في مقدمة كتاب ((المتنبي بين البطولة والاغتراب)) : ((أصبح الجوع مارداً قهاراً وحوّل البلاد الى مسرح رعب وفزع . . . يفغر فاه ويكشّر عن أنيابه ويعتصر بين فكيه أرواح الناس)) .١٦

كما ان الحصار الفكري خلق جواً مشحوناً بالخوف والصمت، فعزل تلك الفئة عزلاً تاماً عما يحدث في العالم، فقد منع دخول الكتب والمجلات بأنواعها وأشكالها، العربية والأجنبية. وأصبح الكتاب، حينما يتوفر يتنقل من يد لأخرى، ويعاد استنساخه حتى تصبح من الصعب قراءته. كما منعت الكاسيتات، وشرائط الفيديو وجميع ما يتعلق بقضايا الثقافة والفكر وأصبحت مختلف وسائل الإعلام والثقافة محرمة على العراقي. ويتعرض لعقوبة السجن والغرامة المالية من يـــنصب لاقطة (دِشْ) في سطح أو حديقة داره .

والخوف جعل العراقي لا يبوح بأتفه الأمور وأبسطها، كموعد السفر الى خارج العراق، ويصمت عن الكلام أمام أطفاله، لئلا يكررون في المدرسة ما سمعوه في البيت. وينبه أولاده ويعلمهم منذ نعومة أظافرهم على تقمّص شخصيتين : شخصية البيت وشخصية المدرسة، ولذا أصبح ازدواج الشخصية جزءاً من كيان الفرد العراقي .

فالرعب والفزع اللذان يحس بهما العراقي، لا يمكن أن يشعر بهما إلا من عاش ومرّ بالتجربة، ويتساءل باستغراب كثير من أصدقائنا ومعارفنا في لبنان عما حل بالعراق من تردٍ وانهيار خلال بضع السنوات الماضية واللذين لم يعان منهما الفرد اللبناني بالرغم من

شراسة الحرب الأهلية التي طالت خمسة عشر عـاماً. إن الفرد التشيكي
الذي عاش تحت الإرهاب السوفياتي يشعر ويحس بما يحس به العراقي من رعب وخوف، وأفضل من صـــــوّر هذه التجربة، المخرج التشيكي ((party)) في فلمه ((الحفلة والضيوف))، والحفلة هنا تحمل ازدواجية المعنى : الحفلة أو الحزب .
بدأ الفلم باستعداد المدعوين بملابسهم الرسمية لحضور الحفلة، وبعد التنزه والتجول بين البساتين والحدائق، مبتهجين بتغيير رتابة حياتهم، ضاحكين ومازحين فيما بينهم، إذا بسيارة سوداء قفز منها عدد من الرجال، ورسموا حولهم دائرة بالطباشير باللون الأبيض، طوقتهم، وأصبحوا محتجزين بها، متصورين أن لا حق لهم بالخروج منها، فساد جو من الوجوم والحذر. وبعد فترة نجدهم في وليمة يقدمها لهم المسؤول الحزبي، أقيمت على شرفهم في حديقة القصر الجميلة. وانغمس المدعوون في أكل ما قدم لهم من المآكل الشهية اللذيذة، وألوان النبيذ الفاخر والأحاديث المتنوعة، وفجأة تجرأ أحد الضيوف على ترك الوليمة، فتلاشت المجاملات واللياقة التي خيمت على أجواء الحفلة، وانقلبت الوليمة الى حفلة صيد، لا يسمع الضيوف إلا نباح الكلاب وأصوات الدرك في مطاردة الرجل الذي ترك الحفل، وبعد ساعة من ملاحقته، انقضت عليه الكلاب ومزقته إرباً إربا .
لزم جميع المدعوين الصمت، وسيطر عليهم جو من الوجوم، وزال المرح وتلاشت الضحكات وجف المزاح، وانقلب الاستغراب الى شك والشك الى قلق، واتشر الهلع والرعب، وجمدوا في كراسيهم، وشلت حركتهم. وشعر الجميع أنهم طرائد، والدرك كالجوارح الكاسرة حولهم .

لقد نقش هذا الفلم في ذاكرتي كالوشم، فقد عشنا هذه التجربة، تجربة الهلع والخوف، التي لا يزال عدد كبير من العراقيين يعانون منها .

وكان لحياة القسط الكبير من معاناتها من هذه التجربة، وكنت قلقة عليها في تلك الفترة، وشعرت بمعاناتها لوعة الفراق ومرارته، والوحدة والعزلة التي ابتلعت كيانها، وكتبت لي تخفف القلق الذي ساورني :

((لا أريد أن تقلقي علينا بسبب ظروفنا هذه، فنحن نقضي أوقاتنا بالقراءة ونجد فيها متعة كبيرة، ونتمشى في الأماسي ونشاهد غروب الشمس بين النخيل في السطح.)) واستمرت على الكتابة التي كانت الأنيس الوحيد لها تضيء العتمة التي تحياها. فذكرت ((وأنا مرتاحة لأن موهبتي القصصية لم تذهب سدى ولو أنني اكتشفتها في وقت متأخر))، وانغمرت في إنهاء روايتها الأخيرة عن تجربتها في الجامعة، ((إذا الأيام أغسقت)) .

كنت أعلم بداخل قراراتي أن جمع شملنا في بغداد أصبح حلماً من الأحلام ولن يتحول الى حقيقة. ولكن كلما انصرم عام وحل عام جديد، كنا نتفاءل ونحّنُ الى مستقبل آخر لعله يجمع شملنا. كنا نحلم في جمع شملنا في مدينة بغداد، بتاريخها العريق، مدينة ((العلم والمعرفة)) التي هيمن إشعاعها الفكري على نصف المعمورة لبضعة قرون. كانت مركز العلم الذائقة والموسيقى والتهذيب، يؤمها الناس من جميع أنحاء العالم لينهلوا المعرفة، من فطاحل علمائها وشعرائها وأدبائها .

ولكن الإحباط المتواصل الذي جابهته حياة وعانت منه، جعلها تشعر أنها في متاهة واسعة من الطرق المسدودة، فأبواب النشر والعمل والسفر موصدة أمامها، أحست بعجز غريب أمام هذه

المحنة، مما أدى بها الى القنوط واليأس بدل المجابهة والتحدي اللذين كانا من سماتها. وشعرت أنها ترزخ تحت وطأة عبء ثقيل غير قادرة على إزاحته عن كاهلها، وهيمنت الكآبة بظلمتها على أجوائها تدريجياً حتى شلت حركتها، ولم تعد ترى بصيصاً من النور أو الأمل. أحست أنها أمام منعطف الهاوية عندما فقدت الحياة مغزاها وهدفها، ولم يبق أمامها إلا الهرب والتخلص منها وإطفاء جذوتها. فقد وصلت الى الخطوة الأخيرة في مفترق الطريق الحاسم، الفاصل بين الحياة والموت، ووجدت راحة في إنهاء مسيرة الحياة والتخلص منها .

وهكذا تلاشت أحلامنا في اللقاء بها في بغداد، في ١ آب من عام ١٩٩٧

ذلك اليوم الذي انطوى على مأساة، عندما تركت وراءها حياة وابنتها مها مدينة بغداد، التي أحبتها وعشقتها كما أحبها والدها من قبل وعشقها، بنخيلها الباسق وظلها المنتشر على أشجار البرتقال، الذي تملأ رائحته العبقة أجواء ضفاف دجلة .

تركت حياة خلفها مدينة غريبة عن التي عرفتها وأحبتها، مدينة تهيمن عليها رائحة المجاري كرائحة جثث الموتى في شوارعها وأحيائها. فلا يستطيع أهاليها النوم من رائحة المجاري العـــــــــاطلة عن العمل و((البالوعات)) المملوءة في الدور لعدم قدرة الناس على تنظيفها المستمر .

في قيظ بغداد الحارق، عندما يتصبب العرق ويسيل على وجوه أهاليها بانقطاع التيار الكهربائي يومياً، تمتزج رائحة العرق المتصبب برائحة النفايات التي تملأ شوارع بغداد، يتغذى عليها البعوض والذباب، ويشارك أطفال المدينة الحفاة بوجوههم الشاحبة، الكلاب والقطط السائبة، بنبش وتفتيش النفايات .

لقد أصبحت بغداد فريسة جريحة بأهلها الأذلاء المهانين حتى في الحصول على لقمة عيش محترمة، جثث متحركة، لا أرادة لها، فبغداد تنزف ولم يبق منها إلا جروح متقرحة. ولكن رغم الجو المشحون بالرعب والجوع، لا زالت عيون الناس ونظراتهم تخفي تحتها معارضة صامتة، وتحت ذلك القنوط واليأس يكمن بركان خامد .

هكذا أطلت حياة على هذه الدنيا في مدينة النجف التاريخية، وهكذا توارت وانطفأ نورها وهي في أوج إنتاجها الفكري، في مدينة بغداد، مدينة السلام .

بلقيس شرارة

كنكستن/ الولايات المتحدة

تشرين الثاني ، ١٩٩٩

الهوامش

* تلك السيرة كتبت كمقدمة لرواية " إذا الأيام أغسقت " / المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت / الطبعة الأولى / ٢٠٠٠

١ـ المتنبي بين البطولة والاغتراب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١ ص ـ ٢١ .

٢ـ وميض برق بعيد، رواية غير منشورة .

٣ـ ندوة الشعر في بغداد الأربعينات، حياة شرارة، ملحق جريدة النهار، عدد ٢٢٩ تشرين الثاني، ١٩٩٧ ص ٥ ـ ٨ .

٤ـ المعلمان : البروفيسور ساسون سوميخ، من ذكريات بغداد، الجديد، عدد ١١ ـ ١٢ كانون الأول، المجلد ٣٤، ١٩٨٥ .

٥ـ وميض برق بعيد، رواية غير منشورة .

٦ـ جريدة الأهالي، بغداد، ١٩٥٤ .

٧ـ نقلا عن نوري عبد الرزاق بعد وفاة حياة في آب عام ١٩٩٧ .
٨ـ جريدة الأهالي، بغداد، ١٩٥٤ .
٩ـ وميض برق بعيد، رواية غير منشورة .
١٠ـ إذا الأيام أغسقت .
١١ـ محمد شرارة كاتباً وإنسانا، د.حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون، شباط / فبراير ١٩٨١، ص ـ ٨ .
١٢ـ وميض برق بعيد، رواية غير منشورة .
١٣ـ إذا الأيام أغسقت .
١٤ـ صفحات من سيرة نازك الملائكة، دار رياض الريس، بيروت، ١٩٩٤، ص ـ ١٨ .
١٥ـ إذا الأيام أغسقت .
١٦ـ المتنبي بين البطولة والاغتراب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١ ص ـ ١١ .

و" إذا الأيام أغسَقَتْ " فَلا تَنسوا " حياة شرارة "!

بقلم : محمود حمد *

أصْغَتْ فاتِنَةٌ من حاراتِ النَجَفِ المأهولةِ بالشِعْرِ..
لصَوتٍ من فَجرِ التاريخ الأولِ..
أن تَحمِلَ حَجَراً ..
.....زاويةً في يَدِها..
لصُروحِ "جنائنَ بابل"..
والأخرى تَنشِرُ عِطراً في أروقةِ الحَرفِ القائِمِ دونَ نُقاطٍ في سورةِ إقرأْ..
هَتَفَتْ أقوامٌ مِنْ خَلفِ الصحراءِ المَسكونةِ بالأحناشِ الصَدَفيَّةِ:
هذي امرأةٌ مِن رَفضٍ..
يَسكُنُها الجِنُّ الأحمَرُ..
تَزرَعُ شَرَراً في أدمِغَةِ السُلطَةِ التِبنِيَّةِ..
فـ " قَضَتْ مَحكمةُ الأورامِ الفَحميةِ..
أن تُلْقى قَسراً ..
في جُبِّ الحَيرَةِ..
سارَتْ قافلةٌ تَنزفُ وَجَعاً في دربِ المَوكِبِ..
من بَوابةِ عشتارَ لبيوتِ "الكرادةِ" [١]..
تَحملُ أحلاماً ودموعاً غَضَّةً..
بقايا كلماتٍ فاحمةٍ دونَ شِفاهٍ..
يَطويها نَعشٌ من خوصِ النَخْلِ المَفجوعِ بـ"سبعِ قصور" [٢]..
وقَفَتْ راعشةً عند جدارِ العَرشِ الغارِقِ بالحمى ..
قُدِّسَ سِرُّ المرأةِ ثاقبةٌ في أزمنةٍ صَمّاء..
نَشَبَتْ نارٌ خلفَ الأبوابِ المَكفوفةِ..
لا أحَدَ يَعرِفُ من أشْعَلَها..
إلاّ السُلطَةَ..

شَبَّتْ "بِنتُ شرارةَ" كالعنقاءِ قُبَيلَ أُفولِ الأصنامِ العَبَثيةِ ..
كانت أوثانُ القِشِّ اليابسِ تَعوي ..
تَخْشى جَذوَتَها..
تَعرفُ إنَّ "حياةً" خَصماً أزلياً ليبابِ الأزمنةِ الرَسميةِ..
"شرارةُ" وهجٌ في أقبيةِ القَمعِ المُكتَظَّةِ بالرَفضِ..
.....
من يَجرؤ أن يَخمِدَ في هذا الليلِ "شرارةَ"؟!
إلاّ أوحالُ السُلطةِ..
" حياة " كانَت فَيضَ حياةٍ فينا..
تَغمُرُنا..
مِنذُ الاستفهامِ الأولِ في أقبيةِ الزُهدِ ..
لرسيسِ النارِ المأجوجَةِ في شرفاتِ الجَسدِ الآفلِ بالغُربَةِ..
"حياةٌ" طَرَقَتْ كُلَّ الحيطانِ المأسورةِ..
تُنَقِّبُ عن نفقٍ يُنْجيها مِنْ نَهَمِ الإحباطِ..
..أزيزِ النارِ..
إلى أحزانِ الغُربَةِ..
" حياة " صاغَتْ حُلُماً مِنْ بَعضِ فُتاتِ الغَسَقِ الآيلِ للأبديةِ..
.....نَسَجَتْ أجنحةً من ضوضاءِ التأريخِ المُزْدانِ بألوانِ الخَيبَةِ..
.....حَرَثَتْ جُلَّ دروبِ الإستفهامِ الشائكِ..
.....نَبذَتْ تيجانَ الإغواءِ البائِرِ..
.....تَرَعَتْ كأسَ الضَيْمِ إلى آخرِ قَطرة..
لتكونَ بعيداً عن آثامِ السُلطَةِ..
لكِنْ..
تَتَعقَبُها الأحقادُ المَضمورةُ في ذرّاتِ الزَمَنِ الفاسِقِ..
مُنذُ ولادتِها...
جانَبَتْ الباطِلَ مُلتَهِباً في كُلِّ مَحطاتِ العُمرِ..
تَعِبَتْ..

أَلقَتْ آلامَ الرِحلةِ في نَبْضِ حروفٍ لَنْ تُنْسى..
شُدَّتْ خَلفَ ضُلوعِ المرأةِ أقوامُ كُفوفٍ قاحِلَةٍ تَدفَعُ نَحو التَنّورِ المُتأجِجِ..
فَتَهاوَتْ في لُجِّ النارِ..
"زينبَ"ضَمَّتها عِندَ يمينِ القَلبِ النازفِ خَوفَ شَواظٍ يُؤْذيها..
و"مَها" غَرَستها تَحتَ الأضلاعِ بِصَمتٍ ..
.. كي تَتَماهى فيها..
"حَياةٌ" وِلِدَتْ من بينِ غُبارِ الطَلْعِ ..
وحَطّتْ فَوقَ كتابِ البَردي..
وَضَعَتْ حَبّاتِ العَنْبَرِ في النَصِّ الطينيِّ..
أَلْقَتْ وَلَهاً تَحْتَ جُذورِ الأرزِ اليانعِ..
أسْرَتْ دونَ وَداعٍ لفيافي الغَيبِ الأبديِّ ..
فَلا تَنسوها!
٢٠٠٧/١/١١
ملاحظة
" إذا الأيام أغسقت "عنوان رواية لشهيدة الفكر الحر الدكتورة حياة شرارة .
حواشي
[١] الكرادة
[٢] سبع قصور: منطقتين في بغداد أقامت فيهما أسرة الشهيدة حياة شرارة ، هذه الأسرة التي أسهمت في اضاءة ثقافة الحرية في العراق، على مدى عقود من الزمن وما تزال .
* محمود حمد : شاعر عراقي مقيم في الإمارات

حياة شرارة سيرة حافلة بالعطاء الإبداعي والإنساني ...

جمال كريم

توقف قلب الأكاديمية والمترجمة والباحثة والشاعرة حياة شرارة، في آب عام ١٩٩٧، ومهما قيل في أسباب رحيلها ومفارقتها الحياة، تظل الراحلة كياناً إنسانيا مميزاً سواء في عطاءاتها الإبداعية المتعددة في أكثر من حقل وميدان، أو في سلوكها الحياتي المعيش ودماثة أخلاقها، فقد تنوع إنتاجها الثر بين الكتابة السردية، رواية وقصة، وبحثاً ومقالة وترجمة، وتحقيقاً، فضلاً عن كتابتها لديوانين شعريين، ويعود كل ذلك، الى تنوع أدواتها الثقافية والمعرفية، من كونها نشأت في بيئة ثقافية وفكرية وأدبية أسست الى حد كبير لقاعدتها المعرفية، فقد كان والدها محمد شرارة شاعرا وله صالون ثقافي وأدبي يرتاده جمهرة من الأدباء والمفكرين والشعراء العموديين أو التفعيليين، من أمثال : الجواهري ورائدي الحداثة الشعرية، السياب والبياتي، ينضاف الى ذلك سفرها الى روسيا الذي أغنى كثيرا من قدراتها الثقافية والإبداعية من خلال قراءاتها الواعية والذكية اللماحة في فنون السرد القصصي والروائي، ممثلة بعمالقة الأدب الروسي الكلاسيكي سنينئذ، مثل ودوستوفيسكي، وتشيخوف، وتولستوي، وغوركي وغيرهم كثير . .

ومن آثارها البارزة والمهمة، إنها حققت كتابين لوالدها هما : " المتنبي بين البطولة والاغتراب " و " نظرات في تراثنا القومي "، ومن إصداراتها في الترجمة : كتاب " فن الترجمة " وكتاب " تشيخوف بين القصة والمسرحية "، ولها في الشعر ديوانان مخطوطان هما : " قصائد قديمة " و " شفق الفجر "، ولها رواية بعنوان " إذا الأيام أغسقت " صدرت بعد وفاتها في بيروت، غير أن كتابها الاهم هو " صفحات من حياة نازك الملائكة " الصادر عن دار رياض الريس في لندن عـــام ١٩٩٤، وهو كتـــــــــــــاب سيري عن حياة الرائدة نازك الملائكة

وقد بذلت الكاتبة جهداً كبيراً في تقصي أدق التفاصيل المتعلقة بنشأة الملائكة من الجانب الاجتماعي والثقافي، وذلك من خلال المصادر الموثقة واللقاءات الشخصية مع ذوي ومقربي وأصدقاء الشاعرة، فهي بهذا المنجز لم تعتمد فقط على ما وقع بين يديها من مدونات أو وثائق، بل أضافت الى كل ذلك - مثلما ذكرت - زيارات ولقاءات ومقابلات نقلتها بما عرف عنها من أمانة علمية وبحثية فضلا عن كتاب نازك " لمحات من سيرة حياتي وثقافتي "، تقول الراحلة شرارة في مقدمة كتابها : منذ أن سجلت ذكرياتي عن نازك المــلائكة في مقال بعنوان " تلك أيام خلت " ظلت تخامر ذهني فكرة الكتابة عن سيرة حياتها بشكل تفصيلي بحيث أستطيع ان أعطي صورة شخصية حية لها تنبض بالحركة. غير ان المشاغل الأدبية اليومية وغير الأدبية جرفتني في تيارها ولم تفسح لي المجال لعمل فكري في هذه الدراسة وأشرع في البحث عن السبل المؤدية الى الحصول على مئات التفاصيل الصغيرة اليومية التي لابد منها لكل من يريد أن يكتب عن سيرة حياة شاعر أو كاتب .

وعن طبيعة هذا العمل الذي أنجزته تضيف شرارة : كنت أدرك أنه ينطوي على شيء من المغامرة واكتشاف ما يسرني وما يسوءني، ما يشحذ عزيمتي أو ما يثبطها. غير أنني لم أكن أميل الى التخلي عن هذه الفكرة. كنت أعتقد أنني استطيع أن انجح في هذا العمل، لأنني كنت مطلعة منذ صغري على حياة نازك الملائكة وعائلتها والبيت الذي عاشت فيه. فقد كانت الزيارات بين عائلتينا مستمرة، وكنت أصغي لنازك عندما تقرأ الشعر، وأسعد عندما أسمعها تغني وتعزف على العود في آن واحد وأجلس صامتة مثل الآخرين عندما تسمعنا الموسيقى الكلاسيكية. كنت معجبة بشخصيتها، بهدوئها، بتواضعها، بشاعريتها ، بتوجهها لنا، باهتمام الناس بها، كل ذلك كان حبيباً الى نفسي. وارتسمت لها في ذهني صورة شاعرية شفافة ظلـــت تلازمني حتى الآن. ان هذه

العلاقة الاجتماعية، كما تشير شرارة، بين الأسرتين فضلا عما تعيشانه من أجواء ثقافية وأدبية متقاربة، جعلتها تلتقي وتصغي بل تعجب وتطري كل هذا الإطراء بنازك، ثم ليكون ذلك من بعد محفزاً قوياً في إنتاج هذا الكتاب السيري عنها، يقع الكتاب في ميئتي وأربع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، تغطي حياة الشاعرة من مرحلة الطفولة والصبا والنضوج و بداياتها الأولى مع تجربتها الشعرية وبخاصة صدور ديوانيها الأولين من بعد ذلك، وحتى رحلة دراستها الأكاديمية في جامعة " برنستون " الأميركية وعودتها الى الوطن والاغتراب ثانية حين درست في جامعة الكويت، والعودة مرة أخرى، ثم لتخطو نحو عتبات السبعين من عمرها قبل أن تغادر أرض العراق الى الأبد .

الشكل الشعري الجديد

وفي فصل " سير الزمن والتضلع بالثقافة " تعرض شرارة الى تحولات، اجتماعية واقتصادية هامة، أما الفصل الذي خصصته شرارة لديواني نازك "عاشقة الليل " الذي كتبت مقدمته أخت الشاعرة احسان الملائكة والصادر ١٩٤٧،و"شظايا ورماد " الصادر عام ١٩٤٩،فقد تابعت خلاله الأحداث والهزات والنكبات التي وقعت وعصفت بالمنطقة أعوامئذ ، وكان لها كبير الأثر على نفس نازك وقريحتها الشعرية الفتية، وتذكر أيضا ، تلقف القراء لديوانها الأول وانقسامهم بين معجب ومتعجب لما احتوى من تعبير عن الحزن والكآبة والشؤم، ثم لتشير بعد ذلك الى ولادة أول قصيدة " تفعيلة "، للشاعرة وهي قصيدة " الكوليرا " والتي اعتمدت على الشطر الشعري بدلاً من وحدة البيت الشعري المؤلف من صدر البيت وعجزه، فحين انتشر وباء الكوليرا في مصر وحصد مئات الأرواح من الضحايا، حاولت الشاعرة ان تعبر عن حزنها الكبير فكتبت تلك القصيدة وبشكل شعري جديد، وفي ذلك تقول شرارة : وهكذا ولدت أول قصيدة نظمتها في الشعر الحر، وهي قصيدة " الكوليرا " التي كتبتها في بحر ساعة. أثارها الشـكل الجديد الذي عبر عن أحزانها وأخذت تردد : .

الموت ، الموت ، الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت .

رحلة الدراسة وصيف الأحزان

وتتحدث شرارة في فصل " الرحلة الدراسية الأولى " عن أمنية الملائكة في حصولها على الزمالة الدراسية التي أهلتها للقبول في جـــــــامعة " برنستون " الأميركية عام ١٩٥٠/ ١٩٥١ ومن ثم قبولها في المرحلة الدراسية الثانية (١٩٥٤- ١٩٥٦) والتي نالت خلالها درجة الماجستير في الأدب المقارن من جامعة " وسكونسن/ ماديسون " ، وعن بعض تجربتها في الدراسة تنقل الكاتبة هذا المقبوس من مخطوط " لمحات من سيرة حياتي وثقافتي " للملائكة : " وقد أتيحت لي في هذه الفترة الدراسة على أساطين النقد الأدبي في الولايات المتحدة مثل : ريتشرد بلاكور، وآلن داونر، وآلنتيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز وكلهم أساتذة لهم مؤلفات معروفة في النقد الأدبي كما عرفوا بأبحاثهم في مجلات الجامعات الأميركية وسائر الصـحف الأدبية ".

كما تتابع شرارة الحدث الجلل والذي هز كيان نازك وأصابها بفجيعة كبرى، ألا وهو وفاة والدتها الشاعرة " أم نزار " ، في لندن صيف عام ١٩٥٣، خاصة وإنها كانت مرافقتها في رحلة اللاعودة الى الوطن بحياة، التي كتبت عنها نازك قائلة : " ثم عدت بالطائرة الى بغداد وحيدة لا رفيق لي إلا الدموع بعد أن دفنت رفيقة سفري الغالية. واستقبلني أهلي يبكون في المطار وكانوا في جزع شديد علي من أن أصاب بانهيار عصبي. والواقع إنني احتملت العبء في لندن كل الاحتمال وإنما بدا الانهيار عندما وصلنا منزلنا ....الخ ". .

وبعد فاجعة الأم التي تركت في نفس نازك عظيم الألم والحزن يتوفى جدها لأبيها في صيف العام ذاته غير أنها ما لبثت أن عـــادت لتمارس حياتها الاجتماعية والثقافية والأدبية، فتقول شرارة في صفحاتها عن نازك عامئذ : هكذا مر عام ١٩٥٣ مثقلا بالأحزان والفجيعة من يد الموت الغادرة التي تخطف الأحباء في غفلة من الأهل. غير ان الزمن

كفيل بإعادة الحياة الى طبيعتها المألوفة ، ودفع الألم الى أركان غائرة غير مرئية في أعماق النفس، وهكذا بدا كل فرد في العائلة يواصل عيشه السابق وهمومه وطموحه. عادت نازك الى نشاطها الأدبي، واستهلت نتاجها الشعري بالحدث الذي هز حياتها وهو موت أمها فكتبت (ثلاث مراث لأمي) نظمتها في آب / أغسطس ١٩٥٣ لتتنفس به لواعج روحها .. .

وتتقصى شرارة بأمانتها العلمية المعهودة، الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية والأكاديمية للشاعرة نازك بعد عودتها الى الوطن من رحلتها الدراسية الثانية عام ١٩٥٦، حيث تنتقل هي وزوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة الى البصرة، لتدرس هناك في قسم اللغة العربية، ثم لتنتخب رئيسة للقسم ذاته، بعد عملها لسنوات تعود الى بغداد عام ١٩٦٨ ثم لتسافر بعد عام الى الكويت حيث تدرس في جامعتها لسنوات طوال حتى إحالتها على التقاعد، وخلال الصفحات تتابع شرارة، رحلاتها الى عواصم أخرى وتتطرق ايضا الى مشاركاتها في المهرجانات الأدبية التي كانت تدعى إليها، وتذكر أن عام ١٩٧٤ كان حافلا بالنسبة لنازك، فقد نظمت قصائد كثيرة وعقدت لقاءات مع أدباء وفنانين، كان منها لقاؤها بالفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب، فضلاً عن طبع ديوانها " للصلاة والثورة " وطبع كتابها " التجزيئية في الوطن العربي "، كان كل ذلك في فندق بلادون ، ثم لتحط رحال أسفارها في دمشق حيث وجهت لها وزارة الثقافة والإرشاد السورية دعوة لقضاء يومين في ضيافتها، وأقامت هناك الأمسيات الأدبية التي تخللتها قراءات شعرية لبعض من قصائدها المـــــــشهورة، تقول شرارة " قالت : سألقي قصيدة حب (ويبقى لنا البحر) فتعالى التصفيق في القاعة وارتسمت البهجة على الوجوه وطافت الابتسامات على الشفاه. ابتسمت نازك بدورها ايضا، فقد أدركت ان الجمهور يهتم بالحب والعواطف أكثر من اهتمامه بقضية فلسطين . . . تلتها قصائد أخرى : " الملكة والبستان " و" رحلة على أوتار العود " وهي من قصائدها

الجميلة التي تحبها وتجمع فيها بين الموسيقى والله والقرآن . . .
كانت آخر قصيدة لها " دكان القرائين الصغيرة " وفيها تسير الشاعرة في جو من الحلم في أحد الأسواق الشرقية . . . كانت تسال العابرين عن مكان الدكان الذي تباع فيه القرائين الصغيرة وأرشدوها الى دكان اسمه مندلي، وظلت تبحث عنه دون جدوى ولم تستطع أن تهتدي إليه أبدا. ويسافر حبيبها دون أن تقدم القرآن الصغير هدية له. فما إن نزلت عن خشبة المسرح ومشت على السلم حتى تقدم منها الشاعر أحمد سليمان الأحمد، ومد يده لها وقال تفضلي، نظرت الى ما في يده فرأت قرآنا صغيرا يقدمه لها . . . شكرته وقالت له : ما أروع هذا، لقد عثرت على دكان مندلي أخيراً ". .
وتتابع شرارة في الصفحات الأخيرة من كتابها تقدم العمر بالشاعرة نازك الملائكة وما له من تأثيرات سلبية على حالتها الصحية، فضلاً عن ذلك تراكمات هموم الحياة اليومية الخاصة منها أو العامة، وأخذت في هذه الفترة تتوالى عليها الدعوات لمؤتمرات أدبية وثقافية لم تلب أكثرها، وتحقق نازك حلمها بعد سنوات طوال من الغربة والتنقل والترحال والأسفار، حيث تشتري لها بعد كل ذلك داراً في بغداد . .
وتذكر شرارة أن جامعة البصرة منحت الملائكة في حزيران عام ١٩٩٢، شهادة الدكتوراه الفخرية تقديراً منها لمكانتها الشعرية ولعملها في جامعة البصرة لبضع سنوات عند بداية تأسيسها في ستينيات القرن الماضي، والمفارقة التي لا بد من ذكرها كما أرى، أن الراحلة حياة شرارة كانت قد انتهت من تأليف كتابها هذا في تموز من العام نفسه . .
تبقى ملاحظة مهمة ولابد من سوقها، هي ان كتاب " صفحات من حياة ٨٢
نازك الملائكة " يعد مرجعا أمينا ومهما ليس في تتبع حياة الرائدة نازك الملائكة، وإنما يعد أيضا مرجعا مهما للكثير من الأحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت على المجتمع العراقي طوال أكثر من ستة عقود . .

لقد دونت الراحلة شرارة كل ذلك وفق رؤية منهجية علمية عميقة وواضحة .

د. حياة شرارة في : نصوص مزدوجة في السيرة والسيرة الذاتية

نادية غازي

(١)

على مدى حلقات متفرقة ومقالات متباعدة زمنيا نشرت د. حياة شرارة نصوصاً من نمط خاص يمكن نعتها بالنصوص (السيَريّة المزدوجة)، تداخلت فيها على نحو حميم وقائع مجتزأة من حياتها ومن عاشت معهم وواكبتهم وعرفتهم عن كثب، وقد شكل اهتمامها بهذا النمط من الكتابة ومثابرتها عليه حالة خاصة وملحوظة جداً ضمن توجّهات الأدب النسويّ العراقيّ الحديث، وان توزع جهدها في هذا الجانب على أكثر من كتاب ومقالة، نذكر منها – على سبيل التمثيل لا الحصر : .

.أ – صفحات من حياة نازك الملائكة، دار الريس، بيروت ١٩٩٤.

ب – مقدمتها لكتاب والدها (محمد شرارة) الذي جمعته وحققته : (المتنبي بين البطولة والاغتراب)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

ج – (تلك أيام خلت)، ثلاث حلقات من ذكرياتها، مجلة الأقلام : ع٧/١٩٨٧، ع ١/ ١٩٨٨، ع ٩/ ١٩٨٩. .

د – ندوة الشعر في بغداد الأربعينيات، ملحق جريدة النهار، عدد ٢٩٩، تشرين الثاني ١٩٩٧ (١). ومن المفارقة أن لا يمهلها الزمن – الذي ظلت تخشى جبروته ومصائبه – الوقت الكافي لإتمـــــــام (مشروعها / حلمها) في كتابة سيرة ذاتية كاملة . .

ويفترض هذا الجنس من الكتابة الإبداعية في مَن يتصدى له توافر نزعتين متلاحمتين لديه على مستوييْ الوعي و المعالجة أو المنظور والأداء : نزعة تاريخية تؤمن بأنّ استرجاع الوقائع الوسيلة المثلى لتقييدها وإنقاذها من الضياع والشتات والنـسيان، ونزعة إبداعية تتحرّى جماليات اللغة وطرائق السرد التي تنقل من خلالها تلك الوقائع .

وقد تهيّأ لها هذا كما تهيّأت لها عوامل نجاح للتميّز في هذا المجال من الكتابة: فقد اختزنت حياتها الشخصية وواقع أسرتها خاصة عناصر إثراء وفرت لها مادة ممتازة للاستذكار، بدءاً من الأسرة اللبنانيّة الأصل التي سكنت العراق وأحبته وتجنسّت بجنسيته، وولادتها في (النجف)، والتجربة السياسية: انتماءً واعتقالاً ونفياً ومطاردة بشخص والدها وعمها، ثم انخراطها المبكر هي نفسها في صفوف الحزب الشيوعي العراقي وتوليها أعباء ومسؤوليات التنظيم والتحامها بالأحداث السياسية ((وهي ما زالت بريعان الصّبا، مندفعة بعاطفة جارفة لمحاربة التعسّف والظلم ومتطلعة الى حرية الإنسان وتحطيم قيوده)) حتى إنهـــــــا ((رُشّحت ولم تبلغ السابعة عشرة من العمر لحضور مؤتمر السلام الذي عقد في براغ عام ١٩٥٢)) (٢) .

وأتاح لها بيت العائلة منذ نعومة أظفارها فرصة تاريخية ثمينة للقاء شعراء وكتاب ومثقفين وسياسيين كانوا يتوافدون على دارهم في مجالس أدبية خاصة: (السياب، نازك الملائكة، بلند الحيدري، الجواهري، لميعة عباس عمارة، أكرم الوتري، آل الملائكة، ناجي جواد الساعاتي، عزيز جعفر أبو التمن، كاظم السماوي، حسين مروة، حسين مردان ...الخ) (٣)، كما وضعتها تجربة الدراسة في مصر وجهاً لوجه أمام أعلام قرأت لهم فكان لقاؤها المباشر بهم هناك وما تكوّن لديها من انطباعات عنهم مادة لبعض تلك الذكريات : (طه حسين، رشاد رشدي، سهير القلماويّ ..... الخ) (٤) .

ثم دراستها في موسكو لمدة ست سنوات، وقد عزّز ذلك ثقافتها وهي التي عُرفت بولع مبكر ونهم في القراءة مع ما اتّصفت به شخصياً من دقة المراقبة والتأمّل وحافظة ممتازة سهلت لذاكرتها اختزان الملامح والأحداث والوقائع مع نزعة توثيقية لتقييد النصوص والأخبار الى حدّ التنقير والتدقيق والهوس أحياناً، كتبت عنها أختها بلقيس: ((كانت حياة تجلس دائماً في زاوية من غرفة الضيوف وبين يديها الصـــغيرتين دفتر

تسجّل فيه ما تستمع إليه في تلك اللقاءات الشعرية من قصائد جديدة..... حفظت حياة معظم شعر بدر ولميعة ونازك وكانت تترنّم بقصائدهم وهي لم تبلغ بعد سنّ الثانية عشرة)) (٥)، وتصف هي نفسها هذه المرحلة من تأسيسها الثقافي قائلة : وأحصل أخيراً على شهادة الابتدائية، ولم تكن الشهادة بحدّ ذاتها تهمنّي ألبته ولم تكن الدراسة تروق لي عموماً لأنّ موادها أشبه بالقيود التي تغلّ حيوية فكري وأمانيه وتحصر المعرفة ضمن أطر وأسيجة..... وإذا بي لا أقبل فقط على قراءة تلك الكتب التي راودت ذهني بل كنت أنكبّ عليها انكباباً واعتكف عليها اعتكاف الناسك في صومعته..... تملؤني نشوة روحية غامرة)) (٦).

ثمة مؤثرات أخرى أغرتها بهذا الضرب الساحر من الكتابة اعني تحديدا كتاب (الأيام) لطه حسين الذي مثّل محطة مهمة في حياتها فقد قرأته وانفعلت به كثيراً بما فتح أمامها من عوالم إنسانية وحكايات غنية متشابكة، وبسحر لغته العذبة، وبتجسيده عظمة الإرادة الإنسانية ولذلك ظلت تذكره باحتفاء واضح : (وأقرأ (الأيام) وتنحفر صورته بخطوط عميقة في ذهني أشبه بالصورة المنحوتة بمنقاش..... ويمثل أمامي شخص طه حسين فلا أرى فيه مجرد أديب عظيم بل أراه مارداً عملاقاً لا يختلف في قوته عن هرقل أو شمشون الجبار) (٧) فهل عمق التأثير الذي وصفته بـ (الحفر) في وعيها ولا وعيها والانطباع الضخم المتولد من قراءة هذا الكتاب كانا وراء تسلل لفظة (الأيام) الى عنوانات نصوصها السيريّة (تلك أيام خلت) و (إذا الأيام أغسقت) ؟ ربّما.

* * *

(٢)

فيما يتعلق بـ(البواعث) لا تكشف نصوصها هنا عن الباعث الحقيقي وراء مشروعها في كتابة السيرة والسيرة الذاتية، بل تكتفي بالتصريح بالمؤثرات الخارجية المباشرة التي تستفزّ الذاكــرة وتوجعها في مواقف

معينة فتبدأ بالانثيال والسرد، مهما تنوعّت طبـــيعة هذه المستفزات : (لقطة تلفزيونية على وجه قديم منسيّ) ، (أغنية حــزينة توقظ المواجع)، (أطلال مكان قديم).....الخ، ويتم الإفصاح عن هذه المؤثرات عادة في مداخل تلك النصوص .

ولكنّ الباعث الداخلي الحقيقي الذي يشدّها الى الكتابة السيريّة – التي تبلورت لديها اتجاهاً واضحاً ملحاً مع منتصف الثمانينيات من القرن العشرين حيث الانتكاسات السياسية والموت الذي اختطف والدتها ووالدها وزوجها ليتركها فريسة الوحدة، والأهم من هذا كله الموت الجماعي، فالوطن بكل تأريخه وجلاله وأجياله يسقط صريعاً في محارق الحروب – أقول : يظلّ الباعث الداخلي مسكوتاً عنه في داخل نصوصها، ويتم الكشف عنه خارجها وبخاصة في رسائلها الشخصية اذ تضع يدها على جمرة المشروع: فالزمن يسحق ويفني الأشياء والقيم والناس والذاكرة، تقاوم الفناء بإحياء الماضي السعيد المجلل بالنجاحات والمسرات .

تقول في رسالة لأختها :

((أحب أن أكتب ذكرياتي عن الأحداث التي مرّت بنا ففيها أشياء تستحقّ التسجيل وأصبحت تاريخاً من ذكريات الماضي، لا بسبب مرور الزمن عليها فقط وإنما من جراء التغيرات الكبيرة في القيم والمفاهيم التي نعيشها بحيث أصبحنا جيلاً له مكوّناته الخصوصية..... جيلاً له تفكيره المتميز ونظرته الخاصة وأشعر بأننا أفضل من الجيل الحالي والناشىء)) (٨) .

* * *

(٣)

المكان بتفصيلاته وجغرافيته حاضر بقوة في نصوصها السيريّة، وغالباً ما يكون عندها رديفاً للحظة انبجاس الذكرى، بضربيْه : المكان الأليف الدافىء وتمثله أمكنة الماضي السعيد ولاسيما (بيت العائلة)، والمــكان

الغريب الموحش وتمثله بشكل متكرّر أمكنة الحاضر بما تنوء به من مظاهر الشيخوخة والتشويه أو الزوال – وغالباً ما تصف أمكنة الماضي بأنها غدت أثراً بعد عين – مّما يضاعف من إحساسها بالغربة والاغتراب : ((مررت بالثانوية المركزية للبنات التي تقع اليوم في شارع الجمهورية، انني لا أكاد أصّدق أنها كانت دار المعلمات سابقاً..... يغشاني الاستغراب..... كانت ذات باحة فسيحة وبناء واسع تختلف عمّا يحيطها من دور ضيّقة صغيرة، وتختلف أيضاً وجوه الطالبات وزيهنّ عن اللواتي أراهنّ اليوم على رصيف الشارع الواسع..... تلفني كآبة مضنية وتعتصر نفسي لتغيّر وتبدّل كل ما كان حميماً اليّ وأمسى تاريخا غابراً ليس الآّ..... إنها لعبة السنين..... فأنا أحمل على كتفي خمسين عاماً بقضّها وقضيضها)) (٩) .

ولئن كانت الحياة لعبة (زمان) ولعبة (مكان) فانّ سرد الذاكرة هو المصل المضاد لأنّه يواجه اللعب العبثيّ بلعب عبثي مغاير: بالايهام بإمكانية إيقاف تدفق الحاضر وتجميد معطياته لصالح استعادة الماضي حيّاً مرة ثانية بكل محمولاته : شخصيات عزيزة (غالباً ما تكون رحلت عن دنيانا)، أحداث سعيدة، أمكنة محبّبة.....الخ .

انّ استرجاع الذاكرة لا يستند الى عودة موضوعية حياديّة للوقائع، ولكنه ينطلق من لحظة انتقائية محفوفة عندها بمشاعر جياشة من الغبطة، كانت تترجمها ـ غالباً ـ بعبارات وصفيّة دالّة مصحوبة بطقوس ورؤىً سحرية وأسطورية كقولها : ((وطارت بي الذكريات كما يطير بساط الريح الى دارنا..... في سبع قصور في الكرادة الشرقية)) (١٠) وتكرر هذا في نص ثان: ((وطفت على وجهي ابتسامة عفوية فرحة فقد حملني بساط الزمن ورجع بي الى السنين الخوالي والى تلك المنازل التي عفا عليها الدهر وعبث بملامحها وغير معالمها..... فاذا بي أعود الى شارع أبي قلام حيث دار أسرة الملائكة والى الرستمية حيث سكنت عائلتنا)) (١١)، وفي نصّ آخر: ((وها أنا ذي أجدني وقد عـــادت بي

بي المخيلة الى بداية الدرب الطويل وكأنها طير من طيور الحكايات الأسطورية أو دليل من أدلاّئها الخرافيين الذين ينهبون فيافي الزمن ويتنقلون بخفة حتى يوصلون المريد الى مبتغاه، نعم ما أشبهها بهدهد سليمان الذي حمل كتاباً منه الى ملكة سبأ وبالجنّ الذين أتوا بعرشها الى قصره قبل أن تصل إليه)) (١٢) .

انه بالضبط ما يحدث لها هنا فسحر الذاكرة يحقق المعجزة بإيقاف فعل الزمن الماحق واختراقه باجتلاب مشهد عزيز مرّ أو وجه أليف مضى أو مكان محبّب دُرس .

* * *

(٤)

ومن الملامح التي تميّزت بها نصوصها أنّها تنطلق من نقطة معينة تنبثق عنها وتلتم عندها ثانيةً الخيوط أعني بذلك (بيت العائلة) وفي الذروة منه (الأب) ولكنه هنا مختلف عن الشخصية التقليدية السلطوية المعتادة للأب الشرقي، لقد ذكرت مراراً ما يتحلى به من الديمقراطية في التعامل والأريحيّة الأخلاقية والفكرية في طباعه وسلوكه مّما يلقي ضوءاً على تعلّقها الحميم به، ولذلك فحضوره دائم يتخلل أغلب استذكاراتها : ((فأتذكر نفسي عندما كنت صبية..... أستمع بلهفة الى نغمات الشعر وهي تأخذ عليّ كلّ سبيل وتترع روحي بجمالها..... وأسمع الشعر ملحّناً ببعض التلحين في إنشاد والدي له حين يكون جالساً في البيت)) (١٣)، وحين استظهرت وهي ما زالت صغيرة أمام نازك الملائكة قصيدة من ديوان نزار قباني (طفولة نهد) استغربت الأخيرة ذلك وسألتها عمّن سمح لها بقراءة القصيدة فباغتتها بالإجابة : عمي، ثم عقبت على الحادثة بالقول: ((وفي الحقيقة لا والدي ولا عمي ـ الذي يعيش معنا ـ يؤمنان بوجود محرمات فكرية ولا يخطر لهما على بال أن يمنعا أحداً منّا أن يقرأ ما يحلو له)) (١٤) .

وتكشف أختها عن جوانب أخرى أعمق من الصـلة الروحية الوثيقة بين

حياة وأبيها تمتد الى موقفه بعد ولادتها إذ كانت البنت الثالثة بعد ابنتين مّما أثار امتعاض الآخرين الذين نعتوها بـ (ثالثة الأثافي) إلا والدها الذي ((كان يؤمن بالمساواة التامة بين البنين والبنات ولم يدع مجالاً لسيطرة عقول مؤمنة بمفاهيم قروسطية من التدخّل في توجيه أبنائه وبناته وتربيتهم ..... نشأت حياة وترعرعت في هذا الجو الأدبي وأظهرت موهبة خاصة عندما كانت تقارع والدي بحفظها دواوين شعر كاملة أثناء المساجلة الشعرية التي كانت تشترك بها العائلة)) (١٥).
وتتطرف في ذكرياتها الى دور والدها في الجلسات الأدبية والسياسية التي كانت تعقد في دارهم : ((ان والدي محمد شرارة كان المضيّف والراعي والمشجع لتلك الندوة بشخصيته القوية اللبقة البشوش وروحه الاجتماعية ونقداته الأدبية الذكيّة وحديثه الممتع وحفاوته بالوافدين وحبّه للضيافة)) (١٦) .
وحين يستوقفها بيت من قصيدة السياب (ستار) فيه إيماءات لعلاقته العاطفية بلميعة عباس عمارة :
(والباب توصده وراءك في الظلام يدا صديق(لا تترك الفرصة تمرّ من غير تعليق : ((كانت هاتان اليدان يدي والدي الذي يرافقهما عادة كما يصحب غيرهم من الضـــــيوف الى باب الدار ويودعهما ثم يغلق الباب)) (١٧) .
ولنصوصها قيمة تاريخية بما تنطوي عليه من ملاحظات دقيقة لأعلام اتصلت بهم ورصدت عاداتهم ومظاهر سلوكهم المختلفة وما خلفته طبيعة شخصياتهم من انطباعات تخلفها شخصياتهم لمن راقبهم عن كثب، تقول عن إنشاد السياب لشعره وقد استمعت إليه مراراً : ((انّ أعصاب يديه المشدودة والتقلصات والانفعالات في عضلات وجهه وصوته توحي إلينا كلها أنّه يعيش التوتر الفكريّ والعاطفيّ الذي تخلقه القصيدة وهي في سبيلها لترى النور وتظهر الى الوجود..... عندما يقرأ القصيدة يظهر كل ما هو جـــــــميل وقوي فيها ويذوب الصوت

لضعيف من الأبيات في القوي منها ويحوّلها في الختام الى سمفونيّة منسجمة الأنغام لا وجود للأبيات النافرة أو الواهنة فيها)) (١٨) .
وسجلت ملاحظات دقيقة عن طقوس نازك أثناء الاستماع للموسيقى الكلاسيكية : ((وهي تنصت إليها مستغرقة فيها ذاهلة عن نفسها وعمّا حولها وقد امتزجت بها كلّ مشاعرها وأحاسيسها فهي أشبه بالعابد الذي يندمج في صلاته فتنسيه نفسه وكل ما يحيط به ..... وكانت أحياناً تغلق عينيها لتستطيع حواسها أن تعبّ المزيد من تلك الألحان وتنغمس فيها، وما كان يجوز لأحد أن يتكلم أثناء ذلك)) (١٩) .

* * *

ولئن شهد مشروعها في سنينها الأخيرة انعطافا نحو كتابة القصة القصيرة وبعض التجارب الروائية فإنها لم تتوقف فعلياً عن شرود الذاكرة فقد استلهمت فيها ايضا مجريات حياتها الشخصية والعائلية (٢٠)، وكأنها وجدت في عوالم القصة بديلاً عن تلك الاسترجاعات المباشرة، وان لم تغادر فعليا منطقة الذاكرة لقد ظلت الذاكرة عندها التعويذة التي تواجه بها القهر والحصار الاقتصادي والفكريّ والسياسيّ والوحدة والحرمان التي أطبقت عليها جميعها، الى أن دُبر بليلٍ مصرعها التراجيدي الغامض. .

الهوامش

(١) تنظر: مقدمة روايتها (إذا الأيام أغسقت)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ٢٠٠٠: ص ٧٤ – ٧٧ .

(٢) م . ن : ٢١.

(٣) تنظر: مجلة الأقلام : ٩، ١٩٨٩: ٩٩.

(٤) ينظر: م. ن: ١، ١٩٨٨: ٩٥.

(٥) مقدمة (إذا الأيام أغسقت) : ١٣، ١٥.

(٦) تنظر: مجلة الأقلام : ١، ١٩٨٨ :٩٢ .

٩١

(٧) م. ن : العدد نفسه : ٩٢.
(٨) تنظر: مقدمة (إذا الأيام أغسقت) ٤٧ .
(٩) مجلة الأقلام : ٧، ١٩٨٧: ٦١.
(١٠) م. ن: ١، ١٩٨٩: ٨٩ .
(١١) م. ن: ٧، ١٩٨٧: ٥٨.
(١٢) م. ن: ١، ١٩٨٨: ٩١.
(١٣) م. ن: ٧، ١٩٨٧ : ٥٨ .
(١٤) م. ن: العدد نفسه: ٦٠.
(١٥) مقدمة (إذا الأيام أغسقت) ١٠ : ١٢ .
(١٦) مجلة الأقلام : ٩، ١٩٨٩: ٩٨،٩٩، ١٠١.
(١٧) مقدمة (إذا الأيام أغسقت): ٤١ .
(١٨) (١٩) مجلة الأقلام : ٧، ١٩٨٩: ٥٨، ٥٩.
(٢٠) نشرت بعض القصص في حياتها وبعد رحيلها، وما زال قسم منها مخطوطاً، تنظر : مقدمة (إذا الأيام أغسقت) : ٦٠، ٦٢، ٧٥ .

الغروب الأخير على شفق المدينة*
(الى روح أستاذتي حياة شرارة)

فاروق سلوم

لم يتبق سوى الأفق والخطوات
على سطح منزلنا..
ـ الأصح على سطح منزلك الأولي ـ هناك
..منزل في أقاصي العراق..وان لم نكن في الأقاصي
..وان لم نكن غير منفيين
من هلع .. واعتزال
وذل ..من الفقر.. ذل العيال ..
ولم يتبق كما تذكرين على السطح سوى خطوتين
فقد أغلقوا كل أفق .. وكل فضاء
وفيما الرصاص وفيما الشظايا
وقد أغسقت .. مرة اثر مرة
كل أيامنا .. وتأملت أنت وقلت : ابتكر قصة
ثم غادر فأن النهايات لا تعتذر لأحد
يوم لا تعرف الأم ابنتها والولد
الم ارو ذلك في روح أيامنا الماضيات
وقد أغسقت يا صديقي
كان وجهك يشحب .. سيدتي
أنت في باحة الدار ووجهي يبصر شمس العراق

تغادر أفق الغروب ..
وكنا نعد الحقائب .. اي حقائب ،
كنا نعد لهاث النهايات
فيما تغيب قليلا على الأفق شمس بلادي
وكان الرصاص كثيفا .
الرصاص كثيفا ..
والشمس تغرب فيما تمدين
كفك كيما نصور آخر شمس تغيب..
لأنا سنهرب ..(قلنا سنرحل) في فجر يوم قريب
ونأخذ آخر هذا الغروب
وآخر قدّاحة في الحديقة
وآخر ظل على مدخل الدار
ألقته تلك الجهنمية التي لوحتها السنين
سنأخذ آخرة المفردات..
ويهتز بين يديك منظر ذاك الغروب
تتكتك بين يديك مرايا
وتهبط من برجها الشمس خوف الرصاص
لمن كل هذا الرصاص
لمن كل هذا الذي تسفحون على عتبة الدار
من نذر .. وضحايا
كأنك قبل تموتين كنت كتبت النهايات

في صورة الانهيار..
في صورة الموت
إذ أنبأتني به الكلمات اليتيمة..
هذه الصفحات التي تكتبين هي الآن بين اليدين
هي الآن في ملجأ الهاربين
الى مدن الثلج.. تبكي وترمي تفاصيلها للنهار
هي الآن من كل كف تغادر
كيما تلقّفها كف منكسر أو صديق
كأن البساطة في عروة الكلمات الملغزة القول
كنت كتبت لنا ان نصور آخر هذا الغروب
إذن سيدة السنوات التي أغسقت
هذه ألف صورة
وألف رصاصة
وألف بكاء
هذه صورة الطلقاء
وقد منحوا كل أبنائهم عنف هذا البلاء
هذه صورة الطلقاء
وهي في صورة الشمس حين تغيب
وأبناؤهم ينهبون النجوم على حافة الليل
حيث تنام المدينة في منزل النبلاء
هم الطلقاء الذين يذوبون من هلع

لو تبقى نبيل على صهوة الأفق
أو عند وجه المغيب
وها أنت تستعجلين الغروب
لنرسم في كامرات الرحيل
الغروب الأخير
إليك إذن سيدة السنوات التي أغسقت
صورة الغسق السومري
ولكننا لم نكن مثلما كنت
او مثلما اخترت .. كيف نموت
.. تخير واحدنا أن يموت..
خلال الحياة !!

---

* في القصيدة استعارات من رواية الراحلة حياة شرارة (إذا الأيام أغسقت) والتي صدرت بعد ان وضعت حياة نهاية لحياتها هي وابنتها جراء ما عانته تحت سلطة الموت .

بمناسبة مرور عشر سنوات على انتحار الكاتبة وأستاذة الأدب الروسي في كلية اللغات – جامعة بغداد الدكتورة حياة شرارة وابنتها مها

بلقيس شرارة من لندن :

مرّ عقد كان أول يوم من شهر آب عام ١٩٩٧، يوماً محرقاً بحرارته عندما غادرت حياة شرارة بغداد إلى الأبد، كان يوماً هزّ كياننا و قيمنا، وأحرقتنا شمس الفراق بحرارتها، ولم تخلف إلا الشهقة واللوعة في استيعاب هول الخسارة. كانت خسارة انعكست ظلالها على محبيها وشملت حتى تلامذتها، فوضعوا لافتة حداد في مدخل كلية الآداب، معبرين بها عن عمق الفقدان الذي سببه رحيلها عنهم. لم نكن نعلم برحيل « حياة » عنا ذلك اليوم حتى المساء، عندما لفنا الليل بعتمته، وجمعنا زوجي رفعة الجادرجي في غرفة تطل على نهر التايمز في لندن، وقال لنا موجهاً كلامه لي ولشقيقتي مريم وزوجها جيم :

لقد جمعتكم هذا المساء لأخبركم بخبر مؤلم جداً بالنسبة لي ولكم، وتوقف لحظة عن الكلام، ساد صمت غريب، آذان صاغية، عيون محدقة، ما الذي سيقوله لنا ! بلع رفعة لعابه، ونحن بالانتظار !! احتبست الكلمات بين شفتيه، شعرت بمعاناته، أحسست أنه يحمل عبئاً ثقيلاً، لا يدري كيف يتخلص منه !! طال الصمت، ونحن لا زلنا آذاناً صامتةً وعيوناً محدقة، ثم أردف قائلاً بجرأة : توفيت « حياة » هذا اليوم، ساد الصمت ثانية وهيمن الوجوم علينا، انفلتت كلمتان من بين شفتيّ : سكتة قلبية ؟ لم يرد عليّ، توقف قليلا متنهداً بعمق، ثم استرسل في إكمال جملته، لقد أنهت حياتها!! كما أنهت ابنتها مها حياتها أيضاً !!

ولماذا و كأن قنبلة حارقة سقطت بيننا، وانقلبت إلى صراخ من الأسئلة الحائرة، كيف ولِمَ انتحرتا ؟ صمت رفعة عن الكلام ثانية، شعرت بالاختناق، و انهالت الدموع من عيني، وأنا أصرخ لماذا ؟ بين الدموع المتدفقة، أجاب رفعة: لا ندري !! ثم رفع سماعة التلفون وفاجأني عندما

قال لأخي إبراهيم : هذه بلقيس تكلم معها، تملكتني الحيرة، لا أدري كيف أفاتحه بهذا الخبر المفجع ! انه بعيد عنا في بيروت. سيطرتُ على أعصابي، وسمعت صوتي يردد : لا ادري كيف أخبرك يا إبراهيم بالفاجعة التي حلت بنا... لقد فقدنا « حياة » !! ساد حاجز من الصمت الرهيب بيننا، لم ينبس بكلمة، فأضفت وكأن صمته شجعني على الاستمرار، كما فقدنا ابنتها مها !! لم اسمع إلا صدى كلماته، يردد : نكبة، نكبة، نكبة ! وانفجرت باكية بأعلى صوتي، نعم إنها نكبة حلت بعائلتنا، سحبت أختي مريم بسرعة خاطفة التلفون من يدي، واستمرت في الكلام و أنا أصرخ و أتساءل والدموع تنساب من عيني لِمَ مها ؟ لا زالت مها، زهرة في عنفوان شبابها، إنها روح الربيع المتفتح، وغصن غض أجتث قبل أوانه !! لِمَ احترقت وتلاشت بهذه السرعة ؟! لما انطفأت جذوة الحياة فجأة ؟! أهذا مصير شابة في مقتبل العمر؟ .

عوت رياح الجزع في داخلي، وتمطت الأفكار السوداء بفحيحها تلتهم ما تبقى من مساحاته، أسائل نفسي في ذلك الليل الطويل وأرد عليها : ما الذي حدث « لحياة » لتقدم على إنهاء حياتها ؟ ما الذي حدث لتلك الروح المتطلعة إلى المستقبل ولِمَ تمزقت أحلامها وتلاشت إلى الأبد !!

مرّ طيف من صور حملتها معي في غربتي، حديقة دارها التي كنا نشرب الشاي بها تحت شجر التفاح وعريش العنب، تطوقنا رائحة الأزهار، وزقزقة العصافير عندما تأوي في المساء إلى حديقة الدار، الدار التي خلت من أهلها، وخيم الصمت عليها في ذلك اليوم، وطأطأت الأشجار رؤوسها وانحنت الأوراد مودعة نعشيهما .

مرّ عقد على تلك الليلة، التي ظلت الأسئلة تدور في ذهني حتى انبلاج الفجر، أسائل نفسي لماذا ؟ ولِمَ ؟ وفي الصباح مسكت القلم محاولة تخفيف الجرح الذي أحدثته مأساة وفاتها، وكتبت تعزية عنها، كانت هي المرة الأولى التي أكتب بها، فقد كانت السبب في أن تتفجر عواطفي الملتهبة ولم أجد في تخفيفها إلا بالكتابة .

مرّ عقد انهارت خلاله استبدادية الحاكم المطلق في العراق، الذي كان سبباً في جعل حياتها وحياة أهل العراق مسلسلاً من الخوف والرعب، الذي صورت بعض فصوله في روايتها (إذا الأيام أغسقت). وبثت ما في أعماقها من وجع وجزع وخوف على صفحات الورق الأبيض، فبرزت فصولاً من الرعب الذي اجتاح العراق .

جلسنا بعد سنوات في الغرفة نفسها، الغرفة المطلة على نهر التايمز، نشاهد من خلال التلفاز، الجماهير في بغداد وهي تضرب رأس تمثال الطاغية الذي شوه نفسية شعب بكامله، بالترهيب والحرمان والعنف والقتل. لم نكن نتصور أننا سنشاهد في يوم ما سقوط ذلك الطاغية، ونهاية حكمه، تمنيت أن تكون « حياة » بيننا في تلك اللحظة لتفرح كما فرحنا .

و لكن ما أقصر تلك الفرحة، التي لم تطل إلا بضع ساعات، حتى بدأت بغداد تنزف أمام أعيننا، وتستباح كما استباحها هولاكو منذ سبعة قرون ونصف !! فكسرت ونهبت آثار متاحفها ودمر تراثها، واندلعت ألسنة النار في مكتباتها وأحرقت وثائق الدوائر والمؤسسات، وكأن التاريخ يعيد نفسه عندما دمرت مكتبة دار الحكمة في بغداد منذ قرون !! .

لكن رغم استباحة بغداد، ظل الناس مستبشرين، فقد تخلصوا من الكابوس الذي كان جاثماً على صدورهم، خانقاً آمالهم وأحلامهم .

وانطلقت في العراق عشرات الصحف والأحزاب، وانعقدت المؤتمرات، بأنواعها و أشكالها، وظهرت شخصيات ووجوه جديدة على المسرح، بعد انهيار عرش صدام، ولكن ظهرت أيضاً عروش جديدة بأسماء جديدة، وانقلبت بعضها إلى إثارة النعرة الطائفية والعرقية والإثنية والعشائرية، فاستبدلت الموجة الشمولية بموجة أصولية، من خلال الفضائيات والإذاعات والصحف. لقد حسبنا أن الطائفية والعرقية والعشائرية قد انمحت في عراقنا الذي نشأنا و ترعرعنا فيه ! فلن تعرف « حياة » عراق اليوم، فهو عراق بعيد، غريـــب عن أفــكارها

وتطلعاتها التي ناضلت من أجلها طيلة حياتها. إذ أن العقلية التي تكمن خلفها هي عقلية صدام حسين المتأصلة في استئصال الآخر. فالتسويات والتنازل يعنيان الخسارة. وأصبح الدين سلعة يباع في المزاد، يزايد عليه رجال مليشيات ملثمة الوجوه، انبعثت وتكاثرت واستشرت كما يستشري السرطان في الجسم العليل. يقتلون باسم الدين على الهوية كما كان يقتل صدام حسين باسم البعث والقومية العربية. أصبح عراق اليوم نقطة جذب لجميع أفكار التطرف التي تتواجد بمسميات جديدة، مدعمة وممولة من قبل بعض الدول العربية والإسلامية. وأصبح القتل والذبح والخطف على الهوية شيء طبيعي في العهد الجديد.!! .

مرّ عقد والعراق يمر في مآسي متواصلة، فالعلم يحارب بقتل أساتذته وأطباؤه وطلبته وعلماؤه وخبراؤه. واستشرت هجرة العقول من العراق وأصبحت آفة لا يمكن التغلب عليها، تلتهم العقول والضمير. مرّ عقد غلب عليه الحزن فأذاب الفرح، عقد لفه دخان الرعب بجناحيه، والناس حيرى يتطلعون إلى السماء علها تشرق شمس الأمان في مدينتهم بغداد .

لا أدري كيف أختصر عقداً كاملاً و« حياة » تحت حفنة من التراب في عتمة القبر الضارية. كنت أتمنى زيارة قبرها بعد سقوط الحاكم الذي كان سبباً في نهايتها المحزنة، زيارة مدينة بغداد التي أحبتها ولم تفارقـها !! مدينة بترت أوصالها وقطعت شرايينها، وهُجّر أهلها، وأغرقت في شلال من الدم !! داكن، قاتم، هو الواقع الذي يعيشه الناس، ولا أدري متى يعود العراق إلى شاطئ الأمان!! فأهل العراق لا زالوا في الانتظار...

الخميس ٢ آب ٢٠٠٧

فرادة في الإبداع وتعدّد في النوع

نبيل العطية

في الأول من آب من عام ١٩٩٧ غادرت الحياة كاتبة عراقية قديرة، وأستاذة جامعية بارزة، تلك هي الدكتورة حياة شرارة، غير ان مما يؤسف عليه أنها فارقت الساحة الثقافية بطريقة غير تقليدية، وبأسلوب مأساوي هو الانتحار.. لقد كانت حياة في سلوكها الاجتماعي، وتوجهها الثقافي، وإنتاجها العلمي، ورؤيتها الحياتية ضد النزعة الظلامية مؤمنة بالإنسان، وحتمية انتصاره، كما كانت مفعمة الإحساس بالمستقبل الزاهر، ولكن الظروف وقساوة الطغيان، وثقل الحصار، كل ذلك أضعف روح المقاومة لديها، وهذا هو الذي كان...يمتاز إنتاج حياة بالتنوع، فقد كتبت : الرواية، القصة، الدراسة، المقالة والترجمة، كما انها زاولت (التحقيق) ونظمت الشعر، ومع تعدد المناحي الثقافية، واختلاف منابعها سعة في الثراء، وعمق في الغنى. وظني في تفسير هذا يرجع الى نشأتها الأدبية، فقد عاشت في بيئة يؤمها الشاعر والقاص على حد سواء، وكان والدها المرحوم محمد شرارة نفسه شاعرا كبيرا أسمعها الكثير من شعره، كما كان ذا مجلس أدبي عامر يحضره عمالقة الشعر كالجواهري، السياب والبياتي. في هذه الأجواء الزاخرة بالأدب، والشعر والثقافة ازدهرت شخصيتها ونمت، فأحبت الشعر وحفظت عيونه، وآمنت بالكتاب وسيلة إبداعية، وبالثقافة منهجا حياتيا. كان ذلك منذ نعومة الأظفار، وصغر الجدائل، وطراوة العقل، وطفولة المخيلة . . وسمحت الحياة لحياة ان تسافر الى روسيا، بلد الرواية والقصة القصيرة، بلد دستوفسكي، بوشكن، انطوان تشيخوف، تولستوي وغوركي، والرعيل الأول من عمالقة الثقافة لدراسة الأدب الروسي عامة وتولستوي خاصة.

حياة والدراسات الأدبية : وحياة دارسة عميقة، ودراستها قائمة على التحليل والغوص الجـــــــاد وراء الظواهر، وفحص مفردات المنجز

الإبداعي بطريقة أخاذة. يتضح ذلك في كتابها " تولستوي فنانا " فقد درست هذا الكاتب الكبير بعناية تامة، معبرة عن مقدرة في الاستقصاء، وجمالية في الطرح، ونظير ذلك كتابها " الأدب الروسي في القرن التاسع عشر " الذي ينطوي على دراسة حياة مجموعة من أعاظم الكتّاب الروس بشكل جذاب مع تحليلات أدبية موضوعية لتلك الشخصيات. على أن اهتمامها بالأدب الروسي لم يصرفها عن الالتفات الى دراسة حياة شاعرة كبيرة هي نازك الملائكة. فكان كتابها " صفحات من حياة نازك الملائكة " الصادر ببيروت سنة ١٩٩٤ دليلا على ذلك !

حياة والروايــة : وتأتي روايتها " إذا الأيام أغسقت " الصادرة بعد وفاتها بمراجعة وتقديم شقيقتها الأديبة بلقيس شرارة لتعبر عن معاناة الأستاذ الجامعي في ظل النظام السابق، والمواجهات الحادة التي اضطر الى خوضها. وعلى الرغم من " ترهل " هذه الرواية، وإغراقها بفيض من التفاصيل غير الضرورية، بمعنى انه كان بالإمكان الاقتصاد في حجمها مع سلامة المنهج، ووضوح الرؤية، بيد أن حياة لم تفعل ذلك لحرصها الشديد على إدانة هذا النظام بأوسع ما يمكن من الكلمات، وأقوى ما تستطيع، مفضلة سيادة النزعة الفوتوغرافية مع الإيضاح المبسط على وجازة الألفاظ، وابهامية المحتوى !

حياة والترجمة : وتعد حياة – دون مبالغة – واحدة من احذق المترجمين العراقيين: سلامة في المنهج الترجمي، ودقة في نقل النص مع إضفاء الطابع الحيوي على النسيج اللغوي الجديد. وعكست اهتمامها في هذا الميدان ترجمتها كتاب " فن الترجمة " لـ (ك سورينيان) و(س. فلورين) و(فل روسيلي) الصادر ببغداد سنة ١٩٧٩ يتضمن هذا الكتاب مجموعة من التجارب الغنية في حقل الترجمة التي لا غنى للقراء عنها، وفي مقدمتها له أبانت عن مفهومها للترجمة بوصفها علما للتعارف، والتقارب، والتفاهم والتفاعل بين الشـــــــعوب وثقافاتها لا " مجرد نقل

أفكار، بل هي بالدرجة الأولى– عملية إبداعية ". وشبيه بهذا ترجـــمتها لـ " تشيخوف بين القصة والمسرح " لمجموعة من الكتاب. صدر هذا الكتاب ببيروت سنة ١٩٧٥، ولغة هذه الترجمة صافية، وأسلوبها شائق.

حياة والمقالة : وحياة مقالية ممتازة وأسلوبها في " المقالة " دال على ضلاعة وتمكن، وجُلّ ما كتبته متعلق بروايات روسية كرواية بوشكن " يفغيني انيغن " وتورغنيف " الآباء والبنون " وغوغول " الأرواح الميتة "، الى جانب موضوعات أخرى، من نحو مقالها عن المرأة بين روايتي " زقاق المدق " و" النخلة والجيران " و" يسنين من الربوع العربية " وسواها في المقالات.

حياة والتحقيق : ولتوطد علم التحقيق في أدبنا العربي، وتقديرا ووفاء لعبقرية والدها فقد حققت كتابه " المتنبي بين البطولة والاغتراب " كما حققت كتابه " نـــظرات في تراثنا القومي ". وقد بدت حياة في كلا العملين محققة مقتصدة في اســـتخدام " الحواشي " فلا ترهل في الشرح، ولا إسراف في التعليق. وبهذه الطريقة انتمت حياة الى المدرسة الحديثة التي تعنى بتوثيق النص، وكشف غوامضه بايجاز ودقة !

حياة والشعر : ليس غريبا ان تكتب حياة الشعر وقد تربت في أحضان بيئة شعرية، ورعاها شاعر كبير هو والدها محمد شرارة. لحياة ديوانان اثنان هما " قصائد قديمة " و" شفق الفجر " لم يُنشرا كما أعلمتنا شقيقتها بلقيس. ان أديبة مرهفة الحس، غنية بالمواهب لابد ان تكتب الشعر الجيد المفعم بالموسيقى، والنغم العذب... وأخيرا لقد خسرت الساحة الأدبية العراقية والعربية أديبة ناشطة وظفت قدراتها في خدمة الثقافة التقدمية وأدبها الحي، وساهمت بفاعلية في كشف إفلاس النظام الدكتاتوري، وفضح أساليبه، وممارساته القمعية. وبذلك اصطفت الى جانب كل الأدباء الوطنيين ممن جعلوا الكلمة النيرة هدفهم الأسمى .

الذكر الخالد لحياة شرارة !

من أشعل النار فيها

سميرة الوردي

بخضرة تلك الغابات وجبالها وبالوديان وضفاف النهرين حلمت خارجة من بطون التاريخ ، حاملة أسفارها . تجوب الأرض شرقا وغربا لا تحدها حدود، توق أن تفوز بالعلم، وأن تتخرج بدرجة عالية تؤهلها للارتقاء بحياتها الى أقصى ما تريد، تحقق حلمها بالرغم من قسوة الظروف التي أحاطت نشأتها الأولى، عرفتها كما عرفت أخريات من خلال وقائع يرويها أبي بفخر واعتزاز، تنعكس عندي كأسطورة رومانسية تُصيغ حياتي، كان معجبا بكثير من النساء اللواتي كسرن قيودهن ليكن قدوة ومثالا يحتذى بهن في بناء ثقافة ووعي مجتمعهن كروزا لوكسمبرغ وجان دارك، يفتخر بنسائنا اللواتي ساهمن كالرجال في العمل السياسي والثقافي، يذكرهن أمامي وكأنه يتمنى أن أكون مثلهن، كثيرا من النسوة المناضلات عرفتهن بوعي دون أن أراهن أو قد أكون شاهدتهن في محفل وظلت ذكراهن عالقة في خيالي على مر السنين. كثيرا ما تردد في داخلي اسم حياة شرارة، لا أدرك ما لذي يربطني بها، أعرفها ولا أعرفها حتى عثرت في يوم من الأيام على كتاب لها في النقد مترجم عن الروسية، وجهها أليف في ناظري، وكأني أعرفها منذ زمن طويل، وما إن قرأت سيرتها حتى وجدت أن ما يربطني بها أشياء كثيرة، مرت سنون مثقلات بالدم والجوع والغضب وسمعت خبرا لم أصدقه في حينها، الأديبة الكبيرة والتي نالت الدكتوراه بجهودها وذكائها وتبوأت مكانة علمية راقية تنتحر حرقا وتحرق معها ابنتيها، ويشاء القدر أن تنجو إحدى البنتين. مر الخبر مرور الكرام وكل عراقي مُحمّل بهمه. أدركت حينها أن حياة أُحْرقت وابنتيها ولم تنتحر كما أراد الطغاة إيهام الناس. المنتحر شخص ضعيف مريض نفسيا أما حياة فهي تلك المناضلة الجسور التي لا تحنيها المحن ولا تذلها المصاعب، ومرت السنون وإذا بي أجد كتابا لها تحت عنوان (إذا

الأيام أغسقت) كتاب جسدت فيه حياة المأساة الحقيقية التي وقع الشعب العراقي تحت وطأتها والتي لم يدركها إخواننا العرب، لأنهم لم يذوقوها بالرغم من رداءة حكامهم وقسوتهم، جسدت فيه ممارسات القمع اليومية التي مارسها النظام لإذلال الناس في لقمتهم اليومية. مَن من إخواننا العرب أدرك ما عاناه العراقيون بكل فئاتهم من ذل ومهانة في أدق تفاصيل حياتهم ابتداءً من وقوفهم فجرا طوابيرَ على المخابز التي قد يظفرون منها بأرغفة معدودة وقد يرجعون خائبين يقضون يومهم بقدرة قادر انتهاءَ بمسائهم المظلم البارد .

بين يدي الطبعة الثانية من الكتاب في عام ٢٠٠٢ والمقدمة كتبت عام ١٩٩٩ أي قبل سقوط النظام بأربعة أعوام وكان موتها في ١ آب عام ١٩٩٧، إشاعات كثيرة روجت قبل انتحار حياة كقتل امرأة لأبنائها لأنها لم تجد ما تطعمهم، وبيع امرأة لأبنائها كي يستطيعوا ملأ بطونهم. من عاش تلك الفترة لا يستغرب من هذه الإشاعات بل الأدهى أصاب بعض الناس القلق والخوف من أن يموتوا فلا يجد أهاليهم ثمنا لأكفانهم. حتى لو افترضنا جدلا إنها انتحرت فهل يعقل أن تقتل ابنتيها بتلك الطريقة الجنونية التي لا مثيل لها في قسوتها وهي المثقفة الحالمة المترجمة لأرق شعراء وأدباء الأدب الروسي ، لماذا تختار الحرق وهو الأقسى بين طرق الانتحار ولا تختار الموت بالسم مثلا ، وكيف أحرقت ابنتيها وأحرقت نفسها لتنجو إحدى البنتين بعد ذلك ، أسئلة كثار لا تجد جوابا ، كل من وصل لسدة الحكم مجد قتلاه والأصح شهداءه وأقيمت مراكز وهيأت ومحاريب لهم وكأنهم في كون آخر وليس كل العراقيين شهداء بأيدي النظام وجلاوزته ، فمن سيمجد حياة شرارة ويبني محرابا لها .

اسم الكتاب : إذا الأيام أغسقت

المؤلفة : حياة شرارة

إصدار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

قراءة: معد فياض

ليس بمقدور احد ان يتناول رواية الدكتورة حياة شرارة (إذا الأيام أغسقت) باعتبارها انجازا فنيا وحسب فهي بالاضافة الى ذلك تنطوي على جانبين مهمين للغاية، الأول باعتبارها وثيقة تتحدث عن مرحلة مهمة من التاريخ العراقي المعاصر، والثاني ان هذه الرواية هي الأولى بين الأعمال الإبداعية العراقية التي تعلن عن موقف واضح وصريح لكل ما حدث وما يحدث، بل وما سيحدث في العراق منذ ما قبل الحرب العراقية ـ الإيرانية مرورا بحرب الخليج الثانية ومرحلة الحصار الذي لا يزال يعيشه العراقيون، لكن من المهم جداً ألا يقع الناقد في خطأ جسيم ويعد الرواية سيرة ذاتية للمؤلفة .

وعلينا ان نذكر قبل الدخول الى عالم الرواية والمقدمة التي كتبتها شقيقتها بلقيس شرارة ان هذه الرواية صدرت بعد عامين من رحيل مؤلفتها الدكتورة حياة شرارة التي انتحرت مع ابنتها الكبيرة، بينما تم إنقاذ البنت الصغرى .

وكان هذا الخبر وحده دليلاً كافياً ومعبراً عما يجري في بغداد وصورة عن مدى الضغوط النفسية التي يتعرض لها الناس هناك والمثقفون الملتزمون خاصة التي دفعت بالدكتورة شرارة الى هذا الموقف ورحت أتذكر هذه الأكاديمية الجادة التي كنا نسارع الخطى لحضور محاضراتها القيمة يوم كنا طلبة في جامعة بغداد .

بعد رحيلها تمكنت شقيقتها، بلقيس شرارة من إخراج مؤلفاتها المخطوطة وكانت رواية (إذا الأيام أغسقت) واحدة منها ولتتمكن من نشرها وهي بذلك قدمت جهداً نبيلاً للقارئ العربي، تقول شقيقتها بلقيس في التقديم للرواية « لقد مضى أكثر من عامين على فقداننا الشقيقة حياة

وابنتها مها، وأصبح الجرح العميق على وشك الاندمال، وغطته غشاوة الزمن والأحداث برمادها. شعرت ان هذه الفجوة الزمنية جعلتني قادرة على قراءة روايتها (إذا الأيام أغسقت) متجردة من أحداث الرواية .
ينقسم الكتاب الذي ضم الرواية الى قسمين الأول المقدمة التي كتبتها شقيقتها بلقيس شرارة والتي تمتد على ٦٤ صفحة لم تقم او تتطرق خلالها الى البناء الفني للرواية، بل تكمن أهمية هذه المقدمة في السرد التاريخي الذي يعرفنا عن قرب على السيرة الحياتية للمؤلفة حياة شرارة وعائلتها والأحداث التاريخية والسياسية التي مرت بهذه العائلة التي تتحدر أصولها من لبنان وهي عائلة سياسية أدبية معروفة في مدينتي النجف وبغداد، وتتناول ضمناً الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية في العراق كاشفة النقاب عن المجالس الأدبية التي كانت تعقد في دار شرارة والتي كان بعض روادها بدر شاكر السياب ولميعة عباس عمارة ونازك الملائكة وغيرهم من رواد الأدب العربي الحديث ورواد الفكر السياسي اليساري ايضا وهذه المقدمة على أهمية ما تتناوله من أحداث فإنها تكشف بالدرجة الأولى عن التكوين الثقافي الذي نشأت خلاله حياة شرارة .
تتطرق المقدمة الى شيء من التفصيل عن حياة المؤلفة كجزء من التعريف بها وبالظروف التي أحاطتها فهي تشير الى ابتعاد حياة شرارة عن العمل السياسي منذ عودتها من موسكو الى بغداد عام ١٩٦٩ بعد ان حصلت على شهادة الدكتوراه حول (تولستوي فنانا) ومن ثم زواجها من الدكتور محمد صالح سميسم الذي تعرض في ما بعد للاعتقال من قبل أجهزة الأمن في العراق ثم نقل حياة شرارة من كلية الآداب في جامعة بغداد الى احدى دوائر وزارة الصناعة لتعمل كمترجمة في مدينة الديوانية بجنوب العراق لرفضها الانتساب لحزب البعث الحاكم ومن ثم الرحيل المفاجئ لزوجها الذي ترك فراغاً كبيراً في حياتها وحياة ابنتيها.
ان المقدمة التي سردتها بلقيس شرارة تلقي الضوء على الظـروف التي

كتبت خلالها الدكتورة حياة شرارة روايتها) إذا الأيام أغسقت)، كذلك تجيب عن الأسئلة المبهمة التي دفعت بالكاتبة الى اختيار الانتحار كحل مناسب لكل الإشكالات التي عاشتها معزولة مع ابنتيها عن الآخرين بسبب الأوضاع الصعبة فمن بين الرسائل التي بعثت بها حياة من بغداد عام ١٩٨٨ الى شقيقتها بلقيس التي كانت تقيم مع زوجها رفعة الجادرجي في الولايات المتحدة، تقول فيها، وبعد ان تم رفض أكثر من طلب لها بالسفر الى خارج العراق، « كنت أتمنى ان أراك، أنا، ومها وزينب في العطلة وكانتا تحسبان الأيام الباقية، لكن جاء الرفض على غير ما توقعنا وقضينا يوما حزينا عند استلام الجواب »، وفي رسالة أخرى في أواسط التسعينات ترسم وباختصار صورة واضحة عن عزلتها وابنتيها عن الحياة العامة في بغداد تقول « نحن نتمتع بالطبيعة بالتمشي على السطح العالي في البيت ومراقبة الغروب ». .

حوارات ذاتية عندما شعرت حياة شرارة بعبثية بقائها في العمل الجامعي حاولت الحصول على التقاعد وذلك عام ١٩٩٦ وكنوع من ممارسة الضغوط عليها رفض طلبها لهذا انقطعت عن الذهاب الى الجامعة واعتبرت مستقيلة. هكذا تصف بلقيس الأشهر الأخيرة في حياة شقيقتها التي كانت تبعد عنها آلاف الأميال فتقول : قدمت حياة عندئذ عريضة موجهة الى رئيس الجمهورية طالبة السماح لها بالسفر ولابنتيها اللتين لا يسمح لهما بالسفر بلا محرم وبعد ان قدمت العريضة الى الجهات المختصة طلب منها إعادة كتابة العريضة بشكل ابتهال وتضرع للرئيس وليس كحق من حقوقها، فرفضت حياة تقديم مثل هذا الطلب الذي اعتبرته اهانة لها ولحقها ولكرامتها، كأن كل حق من حقوق الفرد أصبح هبة او مكرمة، وشعرت بعجز أمام سور شاهق، طوقها وأحاطها من كل صوب مشيرة الى إنها (حياة) « أحست إنها أمام منعطف الهاوية عندما فقدت الحياة مغزاها وهدفها، ولم يبق أمامها إلا الهرب والتخلص منها وإطفاء جذوتها » .

ان رواية (إذا الأيام أغسقت) لعلها هي الأكثر أهمية التي ترسم صورة واضحة عن العراق في وضعه الراهن من غير ان تتحول الى عمل توثيقي وان كانت توثق لمجمل الفعاليات الحياتية عامة وللحياة الجامعية خاصة وتتعدى ذلك لاستشراف المستقبل بوضوح. لقد صدرت وعلى حد علمي روايتان اثر الأحداث التي عاشها العراق بعد حرب الخليج الثانية، الأولى للكاتبة ابتسام عبد الله وبعنوان (مطر اسود) التي تناولت فيها ظروف العراق تحت مطرقة القصف المدفعي والصاروخي مستعرضة وبأسلوب يشبه التسجيل اليومي حياة الناس خلال تلك الظروف وافتقرت تلك الرواية للجرأة بسبب ان الكاتبة تعيش داخل العراق وهي تحت مطرقة النظام الأمني الشديد المفروض هناك مثلما هو معروف الذي يمنع الكتابة بحرية عن الأوضاع السائدة كما أرادت الكاتبة ابتسام عبد الله الحفاظ على العنصر الفني والتركيز على سرد تفاصيل حياة الأبطال خلال أيام القصف .

أما الرواية الثانية فهي (المسرات والأوجاع) للكاتب فؤاد التكرلي التي جاءت فيها ظروف الحرب العراقية ـ الإيرانية هامشية وغير أساسية عندما تطرق المؤلف لحياة الشاب غسان الذي يلقى مصرعه في الحرب، غير هذا كنا دائما نتساءل عن سبب عدم ظهور رواية تتناسب وحجم الأحداث الجسيمة التي مرت وما زالت بالعراق. .

وتأتي رواية حياة شرارة (إذا الأيام أغسقت) وبكل أحداثها لتجيب عن هذا التساؤل من خلال اختيارها لشريحة مثقفة من المجتمع العراقي ألا وهي شريحة الأكاديميين من أساتذة جامعة بغداد ومعاناتهم من عموم الإحداث بدءا بالخراب العلمي المنظم الذي فرضته أجهزة النظام سواء عن طريق قبول الطلبة غير المستحقين للدراسة الجامعية سوى أنهم منتسبون للأجهزة الأمنية أو لتنظيمات الحزب الحاكم ومن ثم التسيب بسبب مظاهرات التأييد التي تفرض على الأساتذة والطلبة ترك مواقعهم الدراسية والخروج الى الشوارع والمشاركة الإجبارية في معـــسكرات

التدريب الصيفية القاسية التي تشبه الى حد كبير أجواء معسكرات التعذيب . ..

لقد تحركت المؤلفة في مساحة تعرفها جيدا، في ميدان اكتشفته بدقة وبكل تفاصيله واعني الميدان الجامعي فكانت جامعة بغداد هي المحور الموقعي للأحداث وبدقة كلية الآداب العريقة وان كانت المؤلفة لا تسميها بوضوح، بل تقودنا إليها من خلال عدد من الدلائل والإشارات الإيحائية وهي بذلك تكون كمن اختار ساحة القتال التي تمكنها من السيطرة على مجريات الأمور وأحداث الرواية من جهة والنقطة التي تنطلق منها الى بقية الاتجاهات سواء من خلال الطلبة او الدخول الى حياة الأساتذة وتشعب علاقاتهم سواء العائلية منها أو علاقاتهم بالطلبة، وبتعيينها موقع الأحداث الرئيسية في الرواية تكون حياة شرارة قد حددت بالضبط ما تريده ورسمت بدقة خطوط التقاطع والاتصال بين الشخوص والأمكنة، وبين الشخوص أنفسهم متخذة من الاسترجـــاعات (الفلاش باك) كخلفية تتيح لها التحرك وبصورة مطلقة في المسافات الزمنية الماضية. أن القارئ لأية رواية سوف يستطيع ان يحدد ولو بصورة نسبية شخصية المؤلف المتوارية أو المعلنة داخل احد أبطال روايته وإذا سلمنا بهذا المفهوم فإننا يمكننا القول ان حياة شرارة المؤلفة موجودة على مدى أحداث الرواية في شخصية الدكتور نعمان، وإذا ما قارنا بين مواصفاته الشخصية في الرواية و مواصفات الدكتورة حياة شرارة فسنجد هناك الكثير من الصفات المتشابهة التي تربط بينهما مثل الجدية الأكاديمية، الانضباط في مواعيد المحاضرات، الحرص العلمي، الانجازات الإبداعية والمؤلفات التي وضعها الدكتور نعمان في الرواية وحياة شرارة في الواقع، الحس الإنساني العالي في النظر للأمور الخاصة والعامة وتعاملهما مع الأحداث العامة والخاصة، إذ وضعت المؤلفة شخصية الدكتور نعمان لتقول من خلالها آراءها هي وليس آراء شخص آخر أي إنها لم تتعامل مع هذه الشخصية بتجرد ولـــكن بانحياز

تام ومع ذلك لم تظهر هذه الشخصية على إنها ايجابية تماما وتحيل أسباب إخفاقاته للظروف العامة المحيطة والمؤثرة عليه ولكن ليس بدرجة تأثيرها على الآخرين الذين تنازل غالبيتهم عن مبادئهم العلمية والأخلاقية وانساقوا للظروف لتمشية حياتهم أو للوصول الى مواقع ومناصب هم ليسوا جديرين بها أمثال شخصيتي العميد ورئيس القسم في الكلية. ففي حوار ذاتي (مونولوج) ينتقد خلاله نعمان تصرفاته وخضوعه للخوف من السلطة، والسلطة هنا تتمثل بشخصية العميد، يستعرض صورته المنافقة في الخروج في مظاهرات التأييد للنظام وان كان غالبا ما يتهرب من هذه المظاهرات، سواء خلسة في الشارع أو يغلق عليه باب غرفته ليوحي بعدم وجوده في الكلية، أو بإعطاء رئيس القسم درجة لا يستحقها في التقييم على بحث الترقية الجامعية أو حتى بإعطاء الطلبة درجات نجاح لا يستحقونها بضغط من العمادة، أسوق هذه الأمثلة للتأكيد للمؤلفة رغم اتخاذها الدكتور نعمان كشخصية رواية أو عاكسة لآرائها إلا إنها لم تظهرها مثالية، بل هي شخصية إنسانية فيها ما في اي إنسان ومهما كان قوياً من نقاط الضعف والخوف خاصة في وضع تكون للقوة غير المشروعة سيطرتها مستخدمة التلويح بعصا الطرد من الجامعة أو التشهير بالأستاذ ابسط مظاهر الرد ضد من يسمونهم غير متعاونين مع السلطة .

مكرمات النظام : امتازت الرواية بجرأة طرح الأحداث ومناقشتها بصوت عال رغم تكرار جملة « للحيطان آذان » لمرات عدة في حوارات الأساتذة مع بعضهم، ولا ادري أن كان لي الحق في الذهاب لاستنتاج مفاده ان المؤلفة عندما أقدمت على كتابة (إذا الأيام أغسقت) كانت على يقين بأنها لن تنشر داخل العراق وهي موجودة هناك، أو أنها كتبتها وتركت موضوع نشرها للظروف المقبلة واحد تلك الظروف هو سفرها مع ابنتيها والإقامة خارج العراق، وفي أسوأها النهاية التراجيدية التي انتهت إليها المؤلفة وهي نهاية لا تتناســب مع أفكار الدكتورة حياة

شرارة خاصة لمن عرفها عن قرب إذ أحيطت هذه النهاية بكثير من الغموض والشكوك حول ما إذا كانت الدكتورة حياة شرارة قد اختارت هذا المصير المفجع أم أن هناك من دبر لها هذا المصير. ففي الرواية يصر الدكتور نعمان على التقاعد من عمله الجامعي كحل لكل الإخفاقات الحياتية والنفسية التي تسببت فيها الأوضاع العامة وكرد مباشر على الخراب والفساد الذي يلحق كل يوم بأرقى المؤسسات التعليمية والثقافية ألا وهي الجامعة ومثلما حدث مع المؤلفة يلقي الدكتور نعمان ذات النتيجة وهي رفض طلبه بالحصول على التقاعد ليبقى تحت مطرقة النظام السائد رغما عنه ولم نقرأ أي تلميح من بطل الرواية يشير الى نيته في الانتحار أو بعدم تمسكه بالحياة بل على العكس من هذا فإن الدكتور نعمان كان حريصا كل الحرص على استمرار حياته سواء بسعادته البيتية وعنايته بحديقة البيت وتمسكه بمواعيد الجمعية التعاونية التي كانت توفر بعض الحاجات الغذائية لمنتسبي الدولة رغم ما يشعرون به من إذلال، ومفردة الذل طالما تتردد على لسان البطل، عميد الكلية الذي يعامل الأساتذة بذل، ذل الوقوف في طوابير الجمعية التعاونية التي يتحكم ببوابتها فراش أو ساع يعمل في الكلية، ذل الوقوف في طابور الهبات المالية البسيطة التي توزعها الدولة للأدباء والكـتاب، وهي ما أطلق عليها عدي صدام حسين بلفظ الـ (مكرمة) التي توزع في بناية اللجنة الأولمبية قسراً، إذ تنتظر العقوبات كل من لا يذهب لتسـلمها ويتهم بالتمرد والتعالي، ثم هناك ذل المواصلات، وذل التجمهر إمام باب غرفة ضيقة لاختبار وزن الأساتذة ومن يزيد وزنه عن حدود وضعتها الدولة ينقص من راتبه الشهري لمدة عام وحتى يحين موعد الاختبار المقبل .

لقد حاكت الدكتورة حياة شرارة علاقات أبطال روايتها بعناية بالغة مثلما تحيك امرأة صبورة سجادة قيمة متحملة الآلام واعني آلامها الروحية وأحزانها النبيلة التي كانت تتفجر في داخلها ورغم محـــاولتها

التي وفقت بها لإظهار صور الخراب والفساد الحياتي في العراق الراهن لتكون الرواية عملا توثيقياً فإن المؤلفة لم تضح على الإطلاق بالجانب الفني لبناء الرواية ولم تنحز للطرف التوثيقي على حساب الفني كما لم تبالغ في إظهار براعتها الفنية على حساب إخفاء الحقائق وهي في الوقت ذاته عبرت عن موقف عنيد ونبيل ايضا إزاء ما يحدث في مجمل جوانب الحياة .

الأحداث التي تناولتها رواية (إذا الأيام أغسقت) تجسد أمام القارئ العربي والعراقي خاصة ما يحدث للمثقف العراقي اليوم وكم أتمنى أن تتم ترجمتها للغة الانجليزية ليطلع القارئ الغربي على هذه الصور المأساوية لحالة شعب بأكمله من خلال تناولها لحياة شريحة الأساتذة الجامعيين وهي بذلك قدمت جهداً إبداعياً وتوثيقياً تاريخياً عجزت المنظومات السياسية العراقية في الخارج عن نقله للعالم، والرواية في هذا الجانب تقترب كثيرا من رواية جورج اورول (عام ١٩٨٤) وتعد رواية وثيقة تستفاد منها منظمات حقوق الإنسان سواء العربية منها أو العالمية، وكم نتمنى لو اطلع الكتاب والمثقفون العرب على هذه الرواية ليتراجعوا عن قرارهم بعقد مؤتمرهم المقبل في أحضان النظام الحاكم في العراق، فرواية الدكتورة حياة شرارة ومن غير ان تحملها مواقف أو شعارات سياسية مباشرة هي عمل إبداعي يعكس صورة المبدع العراقي في ظل نظام القهر والتسلط وحرمان المبدع من حرية التعبير عن ابسط مواقفه الإنسانية ازاء ما يحدث له، فهناك آلام تكاد تصرخ داخل الأبطال وبكاء بعضه معلن والآخر يتفجر بصمت، بكاء يقود لفاجعة الموت وصورته التراجيدية تماما مثل مصير المؤلفة ذاتها.

الرواية: إذا الأيام أغسقت / المؤلفة: حياة شرارة / إصدار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر / تقع في ٣١٧ صفحة ذات القطع المتوسط .

إذا الأيام أغسقت وإذا الأحلام تبعثرت

تركي الحمد

« لقد أصبحت بغداد فريسة جريحة بأهلها الأذلاء المهانين حتى في الحصول على لقمة عيش محترمة، جثث متحركة، لا إرادة لها، فبغداد تنزف ولم يبق منها إلا جروح متقرحة. ولكن رغم الجو المشحون بالرعب والجوع، لا زالت عيون الناس ونظراتهم تخفي تحتها معارضة صامتة، وتحت ذلك القنوط واليأس يكمن بركان خامد » (من مقدمة بلقيس شرارة لرواية شقيقتها حياة شرارة « إذا الأيام أغسقت »، ـ الذي اخترناه عنواناً لهذه المقالة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٧٣). مهما تحدثنا عن العراق، وما حدث في العراق ومن العراق وعلى العراق، فإنه لا يعكس الصورة الحقيقية التي آلت إليها حياة الإنسان في أرض السواد وما بين النهرين. نتحدث في تحليلاتنا عن أشياء كثيرة، وحول مفاهيم كبيرة، وخطر هذا على ذاك، وذاك على هذا، وسيناريوهات ما بعد هذا وذاك، وننسى في خضم ذلك كله الإنسان نفسه وكيف فعلت به أيام نحسبها نحن بدورة الفلك، ويحسبها العراقي بحسابات لا علاقة لها بشمس أو قـمر. أنهيت قراءة « إذا الأيام أغسقت »، ومن قبلها « الغلامة » لـــــــــعالية ممدوح، و« المسرات والأوجاع » لفؤاد التكرلي، و« تل اللحم » لنجم والي، فأدركت إلى أي درك سفلي وصل الإنسان في العراق، وأي مآل آلت إليه الشخصية العراقية، تلك الشخصية المتمردة والفخورة بذاتها. أقارن بين البؤس الذي تزخر به هذه الروايات ـ الشهادات، وبين ذلك الأمل والحلم والكبرياء التي تحدث عنها فاضل العزاوي في « الروح الحية : جيل الستينات في العراق »، أو نجيب المانع في « ذكريات عمر أكلته الحروف » وغيرهما، فأكاد أشك أن المُتحدث عنه عراق واحد، أو هو ذات العراق . .

في غابر أيام غسقت، كان بدر شاكر السياب يصرخ في وجه الطغاة في بغداد قائلاً: « الموت في الشوارع، والعقم في المزارع، وكل ما نحبه يموت، الماء قيدوه في البيوت، وألهث الجداول الجفاف...أهذه مدينتي ؟ جريحة القباب، فيها يهوذا أحمر الثياب، يسلط الكلاب، على مهود إخوتي الصغار ... والبيوت، تأكل من لحومهم. وفي القرى تموت عشتار عطشى، ليس في جبينها زهر، وفي يديها سلة ثمارها حجر، ترجم كل زوجة به. وللنخيل في شطها عويل » (من قصيدة مدينة السندباد). رحم الله السياب، فلو كان حياً اليوم، لمات ألف ميتة وميتة قبل أن يموت، فتلك الأيام الغاسقة التي كان يصرخ في وجهها متمرداً وثائراً، هي أفضل ألف مرة من أيام اليوم، بل وهل تجوز المقارنة ؟ .

والبؤس هنا ليس بؤس البحث عن لقمة تسد الرمق، وأن يصبح ذلك هاجس الجميع، في بلاد لديها من الأنهار اثنان، ومن النفط منابع في الشمال والجنوب، ومن الأرض أسودها، ومن السماء أمطرها. الكل في العراق، إلا فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، من أستاذ الجامعة حتى أولئك الذين يكنسون شوارع الرشيد وأبي نواس والمتنبي، يبحثون عن لقمة تسكت صراخ المعدة، منذ السحر وحتى الغسق، وكل ذلك، مهما كان قاسياً، ليس فيه شيء من البؤس. البؤس في العراق أصبح بؤس الروح التي أصبحت دون روح، والحياة التي أصبحت دون حياة. الخوف يلف كل شيء بردائه، وملاك الموت يراقب الأنفاس حتى يتأكد من أن لا نفس إلا نفس الزعيم، ولا خفقة قلب إلا وهي تـــــهتف باسم الزعيم : « تعاظم الخوف في دواخلهم..لم يكن خوفهم ذلك الخوف الغريزي الذي يشعر به الحيوان في الغابة..وإنما خوف يجمد الروح ويشل الأوصال ويميت الكلمات على الشفاه، ويبعث الفزع في العيون، ويظل المرء مسمراً في مكانه، في تلك الزاوية الضيقة التي حصر فيها ولا يتحرك منها إلا بإرادة غيره »، « إن القلق والترقب لا يضعفان الأعصاب وحدها وإنما يبريان الروح وينهكانها ويشوشان الذهن..»، يقول الدكتور نعمان، بطل « إذا الأيام أغسقت » .

إنه الوضع الذي تصبح فيه ذات الحياة مشكلة، « فالإنسان يتواجه مع مشاكله في الحياة، عادة، بما يملك من صبر وقابلية على المناورة، أما إذا صارت المشكلة هي الحياة نفسها، فما نفع الصبر والمناورات ؟»، وذلك كما يقول توفيق بطل « المسرات والأوجاع ». إنه الخوف الذي ينتفي عنده معنى أي شيء وكل شيء، فيصبح مجرد الحفاظ على الحياة، على بؤسها، هاجس الهواجس، وغاية كل غاية: « لقد استبدلت الكلام بصوت اعتيادي بالوشوشة، لأنني مسكون بالخوف، لا في عقلي الواعي وحده وإنما في كل حواسي وأوصالي: يداي ترتجفان إذا سمعت صوتي العالي وركبتاي تخوران وعيناي تزوغان وأرنبة أنفي تهتز وأنفاسي تلهث وريقي يجف والدماء تجمد في عروقي، وأصبح ظلاً لا نور فيه لشكل آدمي ظاهرياً، بناء ورقياً واهياً ومهتزاً » (إذا الأيام أغسقت، ص ٨٤). ربـــــــما يكون كنعان مكية قد قال الكثير في « جمهورية الخوف »، وربما قال غيره أكثر عما يحدث في بلاد السياب والجواهري والرصافي والوردي، وأرض المن والسلوى، أرض الرشيد والمأمون، ومدارس الكوفة والبصرة، وأحلام شهرزاد في مدينة السلام، ولكن كل ذلك لا يصف الحقيقة الصافية كما تصفها رواية شهادة، تعكس هواجس النفس، والخوف عندما ينخر العظام، وبؤس الذات عندما تصبح عدواً لذاتها ومتلصصاً على نفسها وجاسوساً على تلك الخلايا القابعة في الأعماق .

يتحدثون عن الحصار، وما فعل الحصار كثيراً. ويتحدثون عن تلك الأموال المهدرة، والخيرات المبعثرة التي أوصلت العراقي إلى ما هو عليه من بؤس مادي وتشتت في أصقاع الأرض، وهو الذي لا يرضى في العادة بأرض الرشيد بديلاً : « فالعراقي بطبيعته لا يحب الهجرة، ويفضل الإقامة في بلده مهما قست الظروف عليه، ولكن ظاهرة الهجرة وترك البلد وإيجاد لقمة عيش في بلد غريب بـــعيد عن وطنه، أصبحت القاعدة، وأصبحت أمنية كل عراقي ترك ما يسمى بالوطن » (من مقدمة بلقيس شرارة). ولكن من قال ان الجوع هو البؤس ؟ البؤس هو

انجراح الروح وتمزق الذات حين تضيع الحرية، ويصبح العدل كلمة لا معنى لها، وتتحول الكرامة شعاراً يرفرف في الأعالي، ولكنها تداس بالأقدام على المزابل الموحشة، حيث ترتع الكلاب والفئران. الجوع مع الكرامة والحرية والعدل، عدل بذاته، ولكن أن يكون الجوع ولا شيء آخر، هنا تكمن المأساة : « كان الناس يعانون ويتألمون ويستجيرون بالله تعالى لينصرهم وهم يرون أطواقاً فوق أطواق تحيط بهم : الخوف، المرض، الجوع، العوز. ولكن لا شيء يتغير وتظل الأفواه مكممة والقلوب معذبة والنظرات مستاءة والأقدام تسير والأيدي تواصل العمل» (أغسقت، ص٩٢). ما يحدث في العراق ليس افتقاد اللقمة نتيجة حصار أو حروب، ولكنه ضياع الإنسان ذاته، فالحيوان وحده هو الذي يقتله الجوع، أما الإنسان فلا يقتله إلا ضياع الكرامة وافتقاد الذات في أوضاع لا يسمح للذات بأن توجد فيها. قد يموت الإنسان جائعاً، ولكنه يُقتل حين يُسلب منه أعز ما يملك، تلك هي إنسانيته ذاتها. وما الإنسان إلا شيء من كرامة، وشيء من كبرياء، وشيء من حرية، فإذا ضاع شيء من ذلك، ضاعت تلك الجذوة التي جعلت من الإنسان إنسانا ً.

.

ولا تحسبن العراق ظاهرة طارئة في أوضاع مثل أوضاعنا، أو نتيجة غير خاضعة للمنطق الذي يُسيّر أمورنا في هذه البقعة التائهة من العالم، ولكنه النهاية القصوى لما يمكن أن يؤدي إليه ذاك المنطق وتلك الحالة. فكل مصر من أمصارنا، وكل صقع من أصقاعنا مرشح لأن يكون عراقاً آخر، طالما بقي المنطق ذاته مسيراً للأمور، وطالما بقيت الحال هي الحال منذ أن قال فرعون ذو الأوتاد : « أنا ربكم الأعلى ». « ما علمت لكم من إله غيري »، وحتى رأى الناس صورة صدام حسين في وجه البدر المنير، كما سبق أن رأوا صورة الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم في ذات البدر ذات يوم مضى، مـــروراً بصيحة عبد الله بن محمد بن علي قائلاً : « أنا السفاح المبير». فطالما كان الإنسان لا قيمة له، فكل شيء في الإمكان جائز. لم يكن فرعون هو المسؤول وحده عن

ربوبيته وإلوهيته، ولم يكن السفاح مسؤولاً وحده عن دمويته، وليس صدام هو المسؤول الأوحد عما آل إليه حال العراق. كلنا مسؤولون وبدرجة تكاد تكون مساوية لدرجة مسؤوليتهم، فـكما يقول عيسى في « إذا الأيام أغسقت »، « فالسكوت هو القبول بالعبودية »، ومن رضي بالعبودية مصيراً، فلا يلومنَّ إلا نفسه. مسؤولون حين انسقنا مخدرين وراء شعارات لا تسمن ولا تغني من جوع. مسؤولون حين صمتنا عن كل جريمة ارتكبت، وكل امتهان لكرامة الإنسان، باسم الأمة وكبرياء الأمة، وكانت الأمة في النهاية من الخاسرين. مسؤولون حين اعتقدنا جواز التضحية بالفرد على مذبح الجماعة، فخسرنا الفرد والجماعة أجمعين. مسؤولون حين صدقنا بغباء أن هنالك آلهة تمشي على الأرض، فصفقنا لهذا، وهتفنا لذاك، وكانت النتيجة أن أصبحنا جميعاً مذلين مهانين .

« لقد تجاوزت السبعين فماذا أنتظر، كم سنة سأعيش حتى لو عمَّرت، وماذا سيتغير؟ كل شيء يمضي نحو الأسوأ، فنحن نقف فوق أرض مائلة تنحدر بنا دائماً إلى الأسفل » (إذا الأيام أغسقت، ص ٢٢٤). قمة الإحباط واليأس في كلمات الدكتور أكرم، وهو الذي طُرد من الجامعة لأسباب سرية لا يعلمها إلا من لديه علم بخفايا الصدور في العراق. تقارن ما يقوله الدكتور أكرم هنا، بكل تلك الأحلام التي كانت تملأ الصدور، فتشعر فعلاً بمدى البؤس الذي وصل إليه الإنسان في العراق. يأس وصل إلى درجة مجرد الانتظار..انتظار شيء خارق للعادة يعيد شيئاً من الحياة لمن فقدوا الحياة في القبور، فما عاد بالمستطاع فعل شيء، والخوف، بل هو الرعب يجثم على الصدور ويكتم الأنفاس : « وها أنا ذا اتبعهم برأس مطأطئ وانحشر بينهم وأصبح جزءاً من هذه الكتلة البشرية المتراصـــــة التي تحمل صلبانها وتسير فوق أرض، ترابها من رماد، رماد الحرائق المنظورة وغير المنظورة التي عاشوها وما زالوا يواصلون السير فوقها وعيونهم إلى الأرض، وأحياناً يرفعونها إلى السماء فيبدو فيها التضرع والابتهال

والدعاء الصامت » (إذا الأيام أغسقت، ص٣١٧). وهكذا تنهي حياة شرارة روايتها، أو لنقل شهادتها، على عراق لم يعد العراق : يأس وأمل في انتظار ما لا يجيء .. لعله يجيء.

إذا الأيام أغسقت
رواية : حياة شرارة
قراءة : محمد الأحمد

ما بين متن الرواية ومقدمتها مدّاً من العبير، وجسراً من التوثيق، ونهجاً من التواصل. حيث ما فات أن ُيذكر في الرواية المكتوبة في العراق عن سوء حال الإنسان العراقي، قد ذكرتهُ المقدمة التي كتبت خارج أسوار العراق. تلك الرواية الوثيقة بطبعتها الأولى صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠م، فكتبت للرواية لها مقدمه (بلقيس شرارة) الشقيقة المغتربة في مدينة (كنكستن) الولايات المتحدة، وألحقتها بملحق تعريفي أدرج فيه قائمة الكتب المؤلفة، والمقالات والكتب المترجمة المنشورة . .

.كم هي بديعة سيرة الأديبة الأستاذة (د. حياة شرارة)، ولكن سيرة موتها هو الذي كان أكثر نبلاً، ورقياً، واحتجاجاً .. لأنها رفضت الحياة، الخالية من الكرامة، (فليس بالخبز يحيا الإنسان) وراحت تدون روايتها التي خير سيرة بطولة، ومسيرة تحدي عظيم، ومكابد. كانت الرواية تبرر أسباب ذلك الانتحار الذي تكتم يومها الإعلام، محاولاً أن يجعل من ذلك الاحتجاج البطولي أمراً غير ذي بال .. تسرد أحداث الرواية مشقة أستاذ جامعي في عشرة فصول.. ما بين بيته وفصله الدراسي، تحت نير الاستغلال، والثقل البليغ الذي حفر الظهر بنير أقسى من السياط، وسحق منه العظم .. أيام حصار جائر تقصد فيه الحاكم الدموي البشع (الصادم) أن ينال من كل شهادة علم هو لم يستطع أن ينلها (كونه لم يحصل حتى على الإعدادية).. فما كانت شهادة الأستاذ الجامعي هي إحدى أهدافه ليوجه إليه كل قسوته، بغية تفريغها من محتواها المنير في المجتمع، فقصدته في اللقمة والهواء، وقيدته بحثالة من الأراذل تراقبه، وراحت شرطته السرية تعدّ عليه الأنفاس. أينما يذهب تطل عليه تريد الاطلاع حتى على أحـــــلامه التي بقيت غاية لا

تـدرك، فباع أغلى ما يملك، حتى الكتب وتشرد وراء ألف نجمة شاردة إلى وراء الشمس .. بقي المثقف يقصده الراوي ممثلا بذاته .. عندما ألف الضياع الذي يلف بجيله من الأساتذة الجامعيين الشرفاء، بل شمل حتى الطلبة بكل أطيافها، وبدد الحـرمات الجامعية، إذ تخللت درس العلم .. سوسة الرشوة الفاسدة، وصارت ديدناً يقوض كل المثل التي يحاول البطل الرواي المحافظة على عطرها الذكي في كل خطوة، متحدياً كل ذلك الجبروت، ومنطلقاً .. في بحثه ودرسه، يدون مسلة الانهيار، ولا يبالي بالمعاول التي ما أن يمر يوما حتى يجدها تحفر قدامه، وحوله تريد طمره .. (لم ينج منه أي مخلوق، حتى أولئك الذين كانوا أداته المباشرة في القول والتنفيذ، فقد كانوا اشد ذعراً من غيرهم فلأنهم يحيون بالقرب منه، ويمارسونه صباح مساء، وكانت آثاره الدبقة تلتصق بثيابهم، وتعبر عنها مشيتهم والتفاتاتهم المتجهمة القاسية اللامعة بالشر والتهديد، وهي أول ما يلاحظه المرء فيهم- ص ٨٥-الرواية).. فتارة يأتي فصل الطريق إلى الجامعة، حافلاً، دقيقاً، ومدوناً لعلامات ذلك الزمن. وتارة أخرى محملاً بالجدية في أروقة الجامعة، وممراتها.. حيث التدوين الدقيق هو وجه النضال واحد، فيبقى في كل زمان ومكان، وهو ضد التعسف في الرأي، وقمع الرأي الآخر بتجاهله، أو بتسفيهه، أو تأجليه إلى غير فاعليته .. والمبادئ دائماً هي المسيرة النزيهة البعيدة عن الوصولية نحو تحقيق آمال الشعوب، والنضال هو إزاحة الخوف القديم المترسب الكامن استقراراً من جراء نهج همجي متواتر بالبشاعة الخسيسة، والتكتم المريب ... والإزاحة تأتي بالفعل الحقيقي .. بشكل معادل للتخريب المتعمد الذي نجح النظام (البعثي) المندحر والذي حاول تحقيقه بنجاح منقطع النظير على مدى ثلث قرن، كالمعجزة؛ فتطلب من الرواية أن تكون بفعل متوازي يستند الى ديمقراطية شجاعة مارستها الكاتبة (د. حياة شرارة) تعادل تكميم الأفواه، ويستند إلى بوح حقيقي من اجل عبور كـــــــــل ما سنه ذلك العهد، بوضاعته الشرسة

والإزاحـــة مارستها الرواية / الرواي بحيوية بطلها المحوري، حيث بقي يحلم، ويحلم بحرية، بالتغير، وبتسنين الدستور الراسخ، والثابت الذي لا يستثني أحدا، ولا يقيم فرقا بين هذا، وذاك .. لا على أساس عرقي، أو اثني .. الكلّ متساوي كأسنان المشط.. الكلّ مشمولا في الحق الشرعي للمعتقد، وصراحة الرأي. والسيادة .. الكلّ يعمل من اجل العراق وإنسانه ابن أقدم الحضارات.. بالتأشير نفوراً من كل السلبيات المقيتة .. كمخلفات الحقبة التي استطالت كل يوم بإلف عام، ومسخت أقدس المفاهيم في الطموح نحو التحضر، والابتهاج، ونحو الارتفاع عن ما يقيد العقل، بأبشع السلاسل خسة ومهانة .. حيث تواصلت حملات خبيثة في طمره، وفي نفيه داخل مكانه .. بكل همجية، فحرم المواطن العراقي من أية قائمة يكثر فيها المسموح، وكثر الكثير من قائمة الممنوع، مثبتة كحالة دائمة في عدم الاستقرار (دستور مؤقت مزاجي.. بقيّ مؤقتاً إلى يوم يبعثون، يقره الفرد الواحد، ليخدم ذات الفرد القائد)، ولم ير العراقي أية لائحة يجد فيها حقه الطبيعي في العيش .. الإزاحة الروائية تعني الفعل المعاكس للتمسيخ الذي كان متواصلاً بغسيل الدماغ، والفعل المعاكس؛ هو إعادة الثقة الإدارية وفسح المجال أمام الطاقات الإبداعية في تحقيق الهوية العراقية الراسخة بأنها ابنة شرعية لأعرق الحضارات، وإن ابن الرافدين كان منذ أول ولادته متواصلاً بعطائه المتمدن رغم ما فرض عليه من ترييّف، وتزييف في أنظمته الإنسانية والتشريعية... وكما يذهب إليه الناقد الشهير فولفانغ آيزر (العمل الفني، كل من القيم لا ينضوي تحت البنية بل يشكل جوهرها، وكل المحاولات التي قصدت إلى إخراج القيم من الأدب، سوف تفشل لان القيمة هي جوهر الأدب. ولا يمكن فصل الدراسة الأدبية عن النقد الذي هو عبارة عن حكم تقويمي). فكانت أزمة المثقف شاخصة كون وجوه النظام السابق آنذاك، الإعلامية خاصة، هي التي كانت أداته الفعلية في التـــشويه، وكانت أداة تظليل قد قلبت الحق إلى باطل، والباطل إلى حق وفق ما أرادوا لها .. وان الوجوه المقيتة تلك

كانت أجيرة، وخالية الوفاض من أي إرادة، وكانت أكثر إجراماً من النظام، بالأساس، كونها واصلت الضغط باسم الحزب الواحد مدة طويلة لم تخدم الإنسان العراقي بأيما خدمة، أن لم نقل أنها خلفته كسيراً منهوكاً، ومقصياً عن الحضارة، والديمقراطية، كما بددت ثروات الوطن على ملذات خسيسة ... (اقترنت بالإذلال المعيب، الذي خلق خوفاً مريعاً فيَّ حالما سمعتُ به، و كأنما ظهرت في طريقي فجأة ودون أدنى توقع .. أفعى كبيرة وأخذت بحركة سريعة، تكاد تكون خاطفة نحوي- ص ١٢٨الرواية) ..

ودونت (د. حياة شرارة) ما كان يسحقها، في كل خطوة، بكل ما يتكرر من المشهد المتتابع العنيف، فالأستاذ الجامعي (نعمان) بطل الرواية، كان ينبغي عليه أن يكون بطلاً قائداً، وليس تابعاً فالحرية المنشودة هي عزيمة تعني إعادة زرع ما كان مجتثاً بقصد التغريب، وضد التدّجين ... فـ (كانت مقالاته وكتبه معروفة بأصالتها، وتحليلها الدقيق للأحداث، وتفسيراتها الفطنة للتفاصيل العادية وإعطاء دلالاتها الخفية، مما جعلها تتسم بتناول جديد للموضوع خارج الفهم التقليدي الدارج له، ولهذا كان دوره متميزا في الندوات، والمؤتمرات العلمية التي تعقد داخل البلاد وخارجها والتي توجه له الدعوات دائما لحـــضورها - ص ١٣١- الرواية) ... كما دونت (بلقيس شرارة) ما كان عليها من إيضاح .. ظناً منها أن الرواية لم تكن تحمل كامل هويتها الثقافية، بل وكامل احتجاجها.. لقد ثبتت راوية (إذا الأيام أغسقت)، بين قائمة روايات عراقية غير قابلة للنسيان، ووقفت النسخة الوحيدة، بيننا، من طبعتها الأولى، التي وصلتنا إلى العراق، وبين أيام جبروت الحاكم السقيم، كالتحدي الكبير.. فمثلها كان يومها يقيم عليه النظام ألف جريمة وفق ما يخاف منه .

بعقوبة / السبت ١٣ أيلول ٢٠٠٣

" إذا الأيام أغسقت " : رواية هواء الخوف العراقي

بلقيس شرارة تراجع رواية شقيقتها الراحلة حياة شرارة :

نشأت " حياة شرارة " في جو أدبي سياسي، وتشبعت في الأجواء الأدبية والسياسية منذ طفولتها، فغرست فيها اللقاءات الأدبية التي كانت تقام في دار والدنا، حبها وتتبعها الى الأدب والشعر والقصة والرواية والنقد. فأصبحت نهمة في القراءة واستيعاب ما كانت تقرأه. كما جعلتها اللقاءات السياسية، تدرك وتؤمن منذ نعومة أظافرها، أن هنالك ظلماً وإجحافاً في المجتمع من خلال ما تعرض له والدنا، من اعتقال وسجن، انعكسا بدورهما على العائلة ايضا .

أدّت هذه الأحداث بها، الى البحث عن أداة أو منظمة تجد فيها المنهاج المناسب الذي تتفاعل معه بإثارة شعورها بالإجحاف، ووجدت في الحزب الشيوعي تلك الأداة المناسبة التي كانت تنشدها. فانتمت إلى الحزب الشيوعي في السادسة عشرة من عمرها، ووجدت في الفكر الشيوعي الحلول التي كانت تتوق لها في تغيير مستقبل الشعب، وحل مشاكله، والانتقال به إلى عالم آخر يسوده العدل والإنصاف، وهو انتقال محّتم كما يعتقد الحزب الشيوعي. فهذا الانتشاء بالحياة الموعودة والحلم بخلاص البشرية من البؤس والإذلال هي النظرة الخلاصية التي لاذت بها المنظمات التقدمية، لأنها تعطي رؤية إلى المستقبل وخلاصها من الوضع الذي هي فيه. ولأنها منظمات واضحة في منهجها وهدفها، فهي مريحة من الناحية النفسية، وبها ضبط للذات وإعطاء هوية . .

يظهر الالتزام في المجتمع بأشكال متعددة، وكثيراً ما يكون متضارباً ضمن المجتمع الواحد. لأن نفسية الإنسان مركبة، تجمع أحياناً تناقضاً بين الالتزام والتفرد وكرامة الذات. فهناك الالتزام الديني والطائفي والقبلي والسياسي. أما الالتزام السياسي فهو على نوعين : .

١- الالتزام السياسي الصـــــــارم، الذي يتمثل بحزب البعث أو الحزب

الشيوعي أو الأحزاب الأصولية الأخرى. فلا يمكن للفرد في هذا النوع من الالتزام السياسي أو الديني الصارم، أن يخرج عن قرارات الحزب، ويتفرد عن الآخرين، وإنما يجب أن يكون من ضمن المنظومة الحزبية ويتنازل بذلك عن إرادته وحريته. وتصبح الذات خاضعة لنظام الحزب وذلك واضح في جميع المجتمعات الشمولية .

٢- أما الالتزام الآخر فهو الالتزام السياسي العقلاني، الذي يتمثل بالأحزاب الديمقراطية، كالحزب الوطني الديمقراطي في العراق .

ويتصف الالتزام السياسي العقلاني، بأنه يسمح للفرد بالتفرد ضمن التضامن الاجتماعي، ولذا فانه يعتمد حرية المساءلة والتسوية. فكل قضية معرضة إلى تسوية للتوصل إلى حلول لصالح الطرفين، وهو واضح في أحزاب الدول الغربية، كما نشاهد ذلك في حزب المحافظين أو حزب العمال في إنكلترا وأحزاب الدول الديمقراطية الأخرى في أوروبا وأميركا، لأنها مجتمعات مدنية تؤمن بالتعددية وتعتمد على تفرد الفرد وتضامنه في المجتمع .

وعندما زار راجيف غاندي، رئيس الوزراء الأسبق في الهند، الولايات المتحدة في منتصف الثمانينات، سئل عن علاقته بالاتحاد السوفياتي، إذ كان الاتحاد السوفياتي يعتبر آنذاك رمزاً للشر في عهد الرئيس ريغن، عندما أطلق عليه اسم " دولة الشر "، أجاب راجيف غاندي : لا يوجد عندنا لونان فقط، الأبيض والأحمر، وإنما عندنا لون ثالث، وهو اللون الوردي. ويعني بذلك الحل الوسط والتسويات السياسية .

يفتقد الالتزام السياسي الصارم إلى الحل الوسط ولا يقبل التعددية، فحياة الفرد خاضعة للقرارات الحزبية، ولا يمكنه الحياد عنها، بل تبتلع إيديولوجية الحزب الفرد ويصبح آلة مسخرة بتطبيقه لتلك الإيديولوجية . وهذا ما تعرضتْ له " حياة " عندما كانت عضواً في الحزب الشيوعي، فكانت تُطبق كل ما يمليه عليها الحزب من أوامر. ولم تشعر في يوم من الأيام، بالتناقض بين إرادتها وإرادة الحـزب إلا بعد مرور أكثر من عقد ونصف تقريباً، بعد أن نضجت فكرياً واعتزلت العمل السياسي .

أثر هذا النوع من الالتزام السياسي الصارم في موقفها نحو الحياة والمجتمع في سن مبكّرة، وفرضت على نفسها، مستوىً معيناً ومقياساً قاسياً في تعاملها مع الناس. ولم تستطع التخلص منه نهائياً، رغم أنها أدركت أن هنالك ظلالاً أخرى وألوانا مختلفة في الحياة، ووجدت أن الحياة أعقد من أن تختزل بلونين. كما أنها لم تنتقد رفاقها بالنضال، بالرغم من اختلافها معهم، بعد أن تركت العمل السياسي، وذلك للأخلاق الرفيعة التي تحلت بها، فالتزمت الصمت، وتجنبت الضغط الذي تعرضت له من قبل أعضاء الحزب في موسكو، بأسلوبها الهادئ، وابتعدت عن إحداث المجابهة. وبذلك كانت نقيض بعض الكتاب الذين اختلفوا مع الحزب الشيوعي، فظهرت ردود فعل هؤلاء بصورة عنيفة، بعيدة عن الاتزان، تمثلت في المقالات التي كتبوها في الجرائد آنذاك، منددين برفاقهم الحزبيين، وأصدقائهم التقدميين .

عندما عادت " حياة " من موسكو إلى بغداد، انخرطت في سلك التعليم الجامعي، ولكن لم تمر إلا بضعة أعوام حتى تم تسييس التعليم العالي، من قبل حزب البعث الذي سيطر على جميع مرافق الدولة، ونصّب نفسه الممثل الشرعي للسلطة، وتعرض أساتذة الجامعة ومنهم " حياة " إلى ضغوط شديدة وتهديد لمستقبلهم، ووجدوا أنفسهم أمام خيارين لا غير، إما ترك الجامعة أو الانتماء إلى حزب البعث. ونتيجة لمثل هذا الضغط السياسي، انتقل بعض الرفاق من الالتزام الشيوعي إلى الالتزام الآخر، وذلك عندما وجدوا أن التزامهم الأول يتعارض مع مصلحتهم . وتلونوا بكل الألوان الممكنة، وأصبحوا جزءا من القطيع الذي اخذ يصفق ويعزف لحن الحزب الواحد والرؤية الشمولية، كالأستاذ "وجدي" في رواية " إذا الأيام أغسقت " حيث أصبح من مثقفي السلطة، وتنازل بذلك عن وظيفة المثقف المستقل والمقاوم لمجرى الأحداث التي تفرضها عليه السلطة في الكلية. لأن الأستاذ الذي صار عضواً في حزب البعث أصبح يتمتع براتب أعلى وامتيازات كبيرة، وألقي على

عاتقه الدور الأمني والبوليسي الذي يؤديه العميد أو رئيس القسم في الكلية كما هو واضح في رواية " إذا الأيام أغسقت " .

ولكن " حياة " لم تسمح لها كرامتها التي تمسكت بها كتمسك الشعرة بأهداب العين، بالانتقال من التزام إلى التزام آخر، لأن الالتزام عندها هو مقياس أخلاقي، وظلت مستقلة في موقفها البعيد عن تأييد السلطة وعن المثقفين التابعين لها، مقاومة لضروب التسلط في جميع أشكاله، ولازمتها الكرامة كظلها، حتى في الظروف القاسية التي عانت منها . .

ومعروف أن الفئة المثقفة هي الفئة الأولى التي تتعرض عادة للضغط السلطوي في المجتمع الشمولي. وما يهم السلطة المستبدة هو إخضاع ضمائر تلك الفئة أو تهديدها بمعيشتها وشل تفكيرها. ولا تخاف السلطة المستبدة على شرعيتها أكثر من المثقف الحر المستقل التفكير الذي يكّون خطراً عليها، والتاريخ مملوء بالشواهد على ذلك .

لذا قاست " حياة " كثيراً في حياتها الجامعية، عندما رفضت الانتماء إلى حزب البعث، مؤكدة بحزم على موقفها المستقل والتفرد الذي لا يتحمله الفكر التوحيدي والأنظمة الشمولية، مما أدى إلى تعرضها لصعوبات، وخلق مشاكل كثيرة لها، أثناء وجودها في الجامعة. وعندما تضاعف العنف واضطهاد الناس الذين لا يخضعون لفلسفة حزب البعث في تلك الفترة، اتخذ قرار بالتخلص من جميع الأساتذة الذين لا ينتمون للحزب. كانت " حياة " على رأس القائمة، عندما نقلت إلى مشروع صناعي في مدينة الديوانية. ولكن أعيدت إلى الجامعة بعد فترة قصيرة، لأنهم لم يجدوا أستاذاً يشغل منصبها، ولكنها تعرضت في الوقت نفسه إلى المراقبة الدائمة من قبل مكتب ضابط أمن الجامعة، وأصبحت من المشكوك في ولائهم، بما في ذلك فتح الرسائل التي كانت ُتبعث لها من قبل عائلتها. وكانت تُقرأ من قبل ضابط أمن الجـــامعة، قبل أن تقرأها " حياة "، بالرغم من أنها بدرجة أســـتاذ. إذ ليس هنالك قدسية واحترام أعز ما يخص الفرد، وهو قراءة مضمون الرسائل الخاصة به، والتدخل بخصوصيته، بهذا الشكل المفضوح والنابي. ولأن الفكر

التوحيدي يفترض تنظيماً اجتماعياً موحّداً وفكراً موحّداً، لذا يطلب الالتزام الصارم، والعمل على خضوع الآخرين لأرادته. ويتم بذلك استغلال الفرد وسحق تفرده. فتفتيش رسائل الأساتذة هو جزء من الإجراءات لتوحيد الفكر، ويُعتبر خطراً أي سلوك خارج عن تفكير المنظومة الحزبية، بل يعتبر جسم غريب، يجب مراقبته واقتلاعه والقضاء عليه . وبذلك تحولت المؤسسات العلمية إلى مراكز أمنية ضمن الجامعات وانتشر فيها المخبرون بحجة حماية الأمن الوطني من الأعداء الذين لا يؤمنون بفلسفة الحزب .

نجد ذلك واضحاً في رواية " إذا الأيام أغسقت " في سلطة وسطوة العميد التعسفية، حيث تنتقل هذه النزعة التسلطية إلى رؤساء الأقسام، ثم الأساتذة والطلاب، فهي سلطة تراتبية هرمية، أو تدرج هرمي من الأوامر التي لا يجوز تخطيها، والخروج عنها في الفكر الملتزم .

والهدف الرئيس في الفكر الموحّد والمجتمع الشمولي هو إسكات المثقف المستقل، وذلك واضح في الإرهاب والالتجاء إلى العنف الذي وصل إلى قمته في جامعة الموصل، حيث أُفرد سجن خاص في داخل حرم الجامعة، وغرف للتحقيق، لمعاقبة وسجن الطلبة والأساتذة المشكوك في ولائهم. وتعطينا " حياة " صورة واضحة عن ذلك الجو، والرقابة الذاتية الذي أصبح يحملها الفرد في ساحة العمل، والجامعة، في رواية " إذا الأيام أغسقت " : .

" نحن نقول الآن نعم عندما يرفض ذهننا فكرةً أو عملاً مقترحاً علينا، ونبتسم عندما تتجهم نفوسنا وترغب بالعبوس، ويلوح علينا الهدوء عندما يتملكنا الغضب " (ص ١٨٢). إنه وصف للهيمنة الفوقية والتسلط والاستبداد وغياب العدالة، في كبت مشاعر وأفكار المثقف وخضوعه التام، وسحق للفكر، ليصبح آلة مسيّرة، وظل للسلطة .

عرضت " حياة " عدداً متنوعاً من الشخصيات والأبطال في روايتها، يبلغ عددهم نحو ست وعشرين شخصية. وكل واحد هو نسيج من عدة شخصيات في المجتمع الجامعي والعراقي. ولذا تؤلف كل شخصية في

الرواية، تركيباً ومزيجاً لهذه الشخصيات التي لا تمثل شخصية معينة بالذات، صوّرتها الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، للواقع الذي عاشته، وأضافت إليه من تجربتها الشخصية وملاحظتها للواقع. فالكاتب يبدأ بصياغة الكلمات والجمل ويحبكها في نسيج متين. يكّون شخصياته ويشكّل أبطاله كعجينه، أثناء عملية الابتكار، يدخل في أعماق نفسيتها، فيعريها تارة، ويلبسها من خياله ألواناً، وظلالاً مختلفة تارة أخرى، فتظهر لنا شخصيات حية نابضة بالحياة .

لذا فان رواية " إذا الأيام أغسقت " رواية واقعية، أحداثها من صلب الحياة اليومية، وليس هنالك تصعيد روائي لإثارة مشاعر القارئ، فهو يعرف نهاية الرواية منذ الصفحات الأولى. وليس هنالك مفاجآت مذهلة أو أحداث عنيفة متطرفة أو عقدة متأزمة، كما هي الحال في القصص البوليسية مثلاً، ولكن هنالك سرد للأحداث من خلال شخصيات الرواية التي يصل بعض أبطالها إلى لحظات التمزق والانهيار، وذلك عندما تتمزق المفاهيم وتضيع القيم بعنف غير معقول، من خلال حادثة أو عمل يكون السبب في تقويضها .

استطاعت الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، أن تصور الإذلال والإهانات اليومية التي كان يتعرض لها أساتذة وموظفو الجامعة، بإصغائها ومشاركتها أحاديثهم، التي تدور عن كيفية الحصول على المواد الغذائية، والقلق الذي كان يساورهم عندما يعجزون عن سد رمق عائلاتهم، واضطرارهم لبيع سياراتهم، أو العمل كسائقي تاكسي في ساعات فراغهم. وأضافت إليها من تجربتها عندما شعرت بحصار السلطة لها وأغلقت أبواب النشر أمامها. وهو أقسى أنواع الحصار على الكاتب والمؤلف. ولذا عندما سئل الأستاذ " أكرم " أحـد أبطال الرواية، إن كان يواصل الكتابة ؟ أجاب :

" ستدهش إذا قلت لك أنها أصبحت تشبه مياه المستنقع الراكد ! ماذا تعني الكتابة إذا أصبحت بلا غاية ! أعني إذا كنت لا تستطيع أن تنشر ما تكتبه وتوصله إلى الناس ! ما قيمتها إذا ظلت محفوظة في أدراج

مكتبك أوعلى الرف ؟.. إن كل ما يمكن أن آمله هو أن تنشر نتاجي بعد موتي، إذا حالفها الحظ ! " (ص ٣٢٢) .

تسجل هذه الرواية الأجواء المعتمة، الخانقة، نفسياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً، أجواء غير طبيعية مّر بها العراق، ولا زال يعاني منها في المرحلة الراهنة، خاصة الفئة المثقفة منها، من المبدعين والمفكرين، التي أول ما تطالها السلطة، أن يكون هدفها الرئيس هو إسكات المثقف في كل المجالات، ويشمل البلدان التي ترزح تحت أحكام دكتاتورية . .

لقد جسدت " حياة " براويتها حقيقة الأستاذ الذي كان رمزاً إلى المعرفة والعلم، وأصبح ألعوبة بيد النظام. فصورت الصراع النفسي الذي يعاني منه، عندما يشعر أن لا كيان له، من خلال أحداث الرواية التي يتعرض لها الأساتذة من الإهانة والإذلال، في انتظار فتح باب الكلية لهم، وإجبارهم على الاشتراك بالمسيرات، والتصفيق عند ذكر أسم رئيس الجمهورية في اجتماع العميد، وسوق الأساتذة والطلبة للاشتراك في الحرب العراقية الإيرانية، والتدخل في رفع درجات طلاب القبول الخاص(١). فيشعر الأستاذ بصغر شأنه، أمام السلطة وضعفه وعدم قدرته على أن يقف أمام هذا التيار من الإرهاب .

كما تطرقت الكاتبة في روايتها، إلى أحداث ربما يتصورها القارئ البعيد عن أحداث العراق، من صنع الخيال لا صلة لها بالواقع، وكأنها تتحدث عن عالم غريب، لا يمت إلى المجتمعات المدنية بصلة، بل عالم قائم بحد ذاته، له قوانينه وتعاليمه الخاصة به. إذ أصدرت السلطة، مرسوماً شمل المسؤولين، من الوزراء ورؤساء الدوائر الحكومية وأساتذة الجامعة، في تحديد وزنهم، حسب مقاس أصـــــــدرته السلطة، بالنسبة لطول الفرد ووزنه، وعليهم ألا يتخطوا ذلك المقاس عندما يحين الموعد السنوي لقياس الوزن. وعندئذ يقادون كما تقاد الخراف إلى المسلخ. صوّرت " حياة " القلق الذي ينتاب الأساتذة، وإحساسهم بالذل فوق الميزان، والمعاناة النفسية التي تهيمن عليهم، عندما يكتشفون أنهم تخطوا الوزن المطلوب، فيشعرون أن سيفاً مسلطاً على رقابهم، سيف

الإهانة والإذلال، بتخفيض رواتبهم الشهرية، ودرجتهم الإدارية والعلمية. ووصفت سيكولوجية ذلك الفرد الذي اسُتلب حقه حتى في التصرف في بدنه، عليه أن ينضوي تحت التعليمات، التي لا تكتفي بقولبة فكره، وإنما قولبة حجم بدنه. وشعر بطل الرواية " نعمان " عندما وجد أن وزنه أقل بنصف كيلوغرام، وكأن حملاً ثقيلاً حمله مدة طويلة قد ألقي عن كاهله. ولكنه شعر أيضاً بالاختناق والتصدع النفسي بعد الانتهاء من الوزن، فأضطر إلى القفز من نافذة الغرفة عندما سمحت له الفرصة، وعّبر عن شعوره في الفقرة التالية : :

" شعرتُ أنني قفزت من فوق جدران سجن إلى الفضاء الواسع واستعدت حريتي المفقودة، ولم تعد لي علاقة بتلك البناية التي بدت لي مختلفة، عما يجاورها من عمارات. توارى كل القلق والترقب في داخلي، ولكنني لم أعد أنا نفسي، فقد تصدع شيء في أعماقي وانهار، وجثمت أنقاضه على مشاعري وبهتت هويتي الشخصية واتخذت سمات دخيلة عليها، لا تنسجم مع صفاتها المألوفة. ألقيت نظرة على المبنى قبل مغادرته، كان عدد الأساتذة قد ازداد فيه وكانوا يقفون كالأسرى الذين لا يعرفون متى ستنقضي محنتهم ويقرر مصيرهم " (ص ١٦٢) . .

يعّرف علماء النفس، أن الخوف غريزة تساعدنا على البقاء، ونوع من الحذر عند الإنسان حينما يكون مصدر الخوف معروفاً. فجميعنا نخاف لدغة الأفعى، نحاول أن نتجنبها لأننا نعلم مصدر الخوف. أما عندما تنتشر " رائحة الخوف " بعموميتها كما وصفتها " حياة "، لا يستطيع الفرد عندئذ، في الاستمرار في حياته اليومية بصـــــورة طبيعية، لأنه يجهل مصدر الخوف، فهو منتشر في الهواء الذي يستنشقه يومياً، فيصبح رعباً. والرعب يسيطر عادة تدريجياً على الفرد، وتصبح الرقابة الذاتية جزءاً من كيان الفرد في ساحة العمل والجامعة ويرافقه في مختلف مجالات الوجود ويسيطر على نفسيته حتى في خلوة داره. هذا ما عبّرت عنه " حياة " في تصويرها للخوف عندما ينقلب إلى رعب :

" أطل الخوف أمام ناظري في البداية كبرق خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير أنه لم يَغِب نهائياً، بل ظل يظهر بين آونة وأخرى بدرجات تختلف في قوتها وارتفاعها وعمقها. كان يتخذ شكل دخان رمادي كثيف يلتف ويتصاعد في دوائر مرئية ثم ينتشر عرضاً وطولاً، ويتسلل إلى النفوس وينبت في حناياها ويرقد فيها ويترك على نحو مزمن آثاره الرمادية الكئيبة " (ص ٦٨) .

كما وصفت في فقرة أخرى الاختلاف بين الخوف الغريزي والرعب :.:

" تعاظم الخوف في داخلهم، وازداد معه استسلامهم للضغط الذي يتعرضون له. لم يكن خوفهم ذلك الخوف الغريزي الذي يشعر به الحيوان في الغابة، عندما يسمع خطى متلصصة تقترب منه، أو رائحة عدو تتسلل في الهواء فيلوذ بالفرار للحفاظ على حياته، وإنما خوف يجّمد الروح ويشل الأوصال ويميت الكلمات على الشفاه ويبعث الفزع في العيون ويظل المرء مسّمراً في مكانه في تلك الزاوية التي حُصر فيها ولا يتحرك منها إلا بإرادة غيره " (ص ٨١) .

إن الذل هو الخوف من المجهول، عندما لا يوجد من هو معصوم وبعيد عن الإهانة، التي تعرض لها أمثال الأستاذين " عبود وأكرم " في الرواية، وذلك عندما تجرآ على الوقوف أمام الوضع المنحرف في الكلية، الذي أصبح هو القاعدة، إنها صورة الرعب المتجلية بأقوى معانيها، وتصوير لعجز الإنسان المسلوب الإرادة والحقوق. إذ أصبحت ثقافة الخوف متأصلة في سيكولوجية الفرد العراقي، وشملت حتى رجال السلطة والقادة أنفسهم، فالكل يخاف من الكل .

لقد عبر كتاب غربيون عن هذا الرعب الذي مارسته بعض السلطات في أوروبا الشرقية في عقد الثلاثينات، كالكاتب التشيكي " كافكا "، كما عبر عنه كتّاب في الاتحاد السوفياتي كالكاتب الروسي" سولجينتسن " في عدد من رواياته. وعندما سئل الموسيقار الروسي " جستاكوفيج " في إحدى زياراته إلى الولايات المتحدة : بأي درجة تضع نفسك بالنسبة لستالين ؟ أجاب: أنا بمنزلة الدودة. بينما أخذ التاريخ ينسينا دور ستالين

كمنظّر سياسي، ولكن بمرور الزمن أصبح الموسيقار " جستاكوفيج " من أعظم ما أنتجته عبقرية القرن العشرين في الموسيقى .

لم تستطع أن تستمر " حياة " في التدريس في الجامعة بعد رفضها الدائم الانتماء إلى حزب البعث، وخسرت بذلك عملها في الجامعة وأغلقت أبواب النشر أمامها ووجدت جميع أبواب العيش موصدة أمامها. أحست بأنها محاصرة من جميع الجهات وأنها تعيش في سجن، ولم تبق لها حتى كوة مضيئة تساعدها على الاستمرار في الحياة. ولكنها أنهت كتابة رواية " إذا الأيام أغسقت " قبل رحيلها عن هذا العالم بأربعة أشهر، لتترك لنا وثيقة أدبية صريحة عن تفرد الفرد وبيان مشاعره، ومجابهة حقيقية لسطوة السلطة على الفرد وسحقه، وهي صراحة لم تزل نادرة في الأدب العراقي .

بلقيس شرارة / لندن

---

(١)" طلبة القبول الخاص " هم الطلبة الغائبون عن حضور المحاضرات أثناء العام الدراسي، وتنحصر مهمتهم بالمراقبة وكتابة التقارير عن رفاقهم الطلبة، وعلى أساتذة الجامعة إعطاؤهم درجات تخولهم النجاح في نهاية العام .

قالوا في حياة شرارة

. . . كان لي أصدقاء كثيرون في السجن (سجن نقرة السلمان ١٩٥٥)، وفي مقدمتهم المرحوم محمد صالح سميسم الذي دخل السجن وهو في السنة الأخيرة من كلية الطب، ثم صار طبيبنا الثاني بعد الدكتور حسين الوردي .

لكن الحس المرهف لمحمد صالح سميسم، وحبه للأدب والفن، مكنه من أداء دور البطولة في مسرحية (المفتش العام) لمؤلفها الكاتب الروسي الكبير غوغول، ومسرحية أخرى عن المقاومة في الدنمارك للاحتلال النازي . . وغيرها من المسرحيات، قدّمت على مسرحنا السجني المتواضع .

أحببت محمد صالح سميسم كثيراً كأقرب أصدقائي. ولذلك فقد كنت سعيداً باستعادة ذكريات تلك الصداقة، أيام الانفراج النسبي في أوضاعنا السياسية في أوساط السبعينات .

وكثيراً ما كنا نتردد عليه، طلباً لمساعداته الطبية في مستشفى الطوارئ ببغداد. كما اعتاد أن يشاركنا بعض احتفالاتنا في المناسبات الوطنية في حدائق مقر اللجنة المركزية للحزب، في ساحة عقبة بن نافع ببغداد .

تألمت كثيراً لسماعي أخبار معاناته، ووفاته في كانون الأول ١٩٨٢. وكذلك الموت المفجع لزوجته الأستاذة والأديبة حياة شرارة وابنتهما مها، عام ١٩٩٧ .

باقر ابراهيم الموسوي

(من مذكرات باقر ابراهيم ص ٦٥ ـ ٦٦)

* * *

. . . وتشاء الظروف مرة أخرى أن تكون أستاذتي الجامعية لتدريسي اللغة الإنكليزية هي الرائعة الفقيدة الأستاذة الدكتورة حياة شرارة. نشأت بيننا علاقة ود من النوع الذي لا يتمكن المرء من تكراره مع كل البشر، لذلك صدمت بشدة يوم فقدها، والطريقة التي فقدناها بها . .

. . . كانت بيننا أحاديث أدبية كثيرة وذكريات مشتركة عن مجتمع من الأدباء نعرفهم كلينا ، وكل من زاويتها الخاصة، روت لي الكثير عن السياب والبياتي ونازك ولميعة وعاتكة وعبد الرزاق عبد الواحد ،قالت : كنت ألتقيهم عندنا في البيت كثيرا بحكم زمالتهم وصداقتهم لعمي مرتضى شرارة في دار المعلمين العالية. سألتها عن سبب الخلاف الدائم بين لميعة وعمي أبو على (الشاعر عبد الوهاب البياتي) فقالت : لميعة تريد تضمه الى جوقة الملتفين حولها وعمك العلاقات النسائية ليست على باله، انظري بوجه زوجة عمك أم علي لتتأكدي، بمرور الوقت تحول العناد بينهما الى خصام وصار كل واحد منهما يكيل للثاني من طرفه، وفي الوقت الذي يباريها هو بالحقائق حين يقول عنها أكبر منه عمراً ومتعددة العلاقات وهذا صحيح، تثور هي وتكيل له تهماً وهمية لا أدري كيف تخترعها، ولكن هل تدرين يا ميسون ؟ لم يوجه أحدهما الكلام للآخر بشكل مباشر، الناس هي التي كانت تنقل الكلام بينهما، ولو لم يكن الوسط فاسداً لما وصلت الخصومة بينهما الى هذا الحد . .

يرحمك الله برحمته الواسعة يا حياة شرارة. اليوم أجدني محتاجة لكتابة كلمات قلتيها لي قبل ثلاثين عاماً .

د. ميسون البياتي

(من مقال للكاتبة بعنوان : رفقاً بالحق والحقيقة)

* * *

. . . تذكرت الكاتبة الراحلة حياة شراره ورواياتها الرائعة " أذا الأيام أغسقت " والمـــــــــقدمة المؤثرة التي كتبتها عن ظروف د.حياة والرواية أختها بلقيس وبحكم كوني من المتابعين للوسط الثقافي والفني ولقراءتي أكثر من مقالة ودراسة أدبية للكاتبة الراحلة د.حياة شراره تأثرت جدا على المستوى الشخصي والفني بالموت المأساوي لهذه المبدعة مع أفراد أسرتها وصمت المثقفين العراقيين والعرب عن

اضطهادها وموتها التي أرادت منه أن يكون رمز وعلامة في تحدي النظام الاستبدادي الشمولي .

نزار شهيد الفدعم

(من مقال للكاتب بعنوان : جدار بين ظلمتين من أدب السجون)

آل شرارة (١)

ينتسب آل شرارة الى الشهيد الأول ومن قبيلة الآوس الهمدانية اليمانية، هاجروا من بنت جبيل في لبنان الى النجف في القرن الثالث عشر الهجري ورجعوا الى لبنان في القرن الرابع عشر الهجري وكانوا من الأسر الأدبية والعلمية في النجف، برز منهم المرحوم شيخ مـــــوسى (١٢٦٧ ـ ١٣٠٦ هـ) كان عالماً فاضلاً وفقيهاً أديباً له (الدرة المنظمة في الأصول)، (رسالة في تهذيب النفس)، (منظومة في المواريث). بن محمد امين المتوفي (١٢٧٥ هـ) بن محمد حسين المتوفي (١٢٢٥ هـ) بن علي شرارة الهمداني ومنهم محمد المـتوفي (١٣٠٣ هـ) بن محمد امين شرارة وعلي المتوفي (١٣٣٠ هـ) بن حسن المتوفي (١٢٧١ هـ) بن محمد حسين شرارة ومنهم محسن المتوفي (١٢٤٢ هـ) بن محمد حسين شرارة ومحمد حسن بن عبد المنعم بن محمد امين بن صادق بن موسى بن محمد بن علي شرارة ومنهم الشاعر محمد(٢) (ولد ١٣٢٤ هـ) بن علي بن موسى شرارة ومحمد بن عبد الكريم المتوفي (١٣٣٢ هـ) بن موسى شرارة والشاعر محسن (١٣١٨ ـ ١٣٦٥ هـ) بن عبد الكريم بن موسى شرارة وغيرهم وهم كثيرون، وهذه الأسرة كان لها مواقف جليلة في خدمة الدين والنجف ونالت احترام الناس ومحبتهم .

---

(١) المصدر / كتاب : الدرر البهية في أنساب عشائر النجف العربية
الجزء الثاني / الطبعة الأولى ١٩٩٠
المؤلف : عباس محمد الزبيدي الدجيلي

(٢) والد الفقيدة حياة شرارة

الفهرس

الإهداء ٣
صورة الفقيدة " حياة شرارة " ٥
المقدمة ٧
سيرة حياة الفقيدة "حياة شرارة " / بلقيس شرارة ١٠
و " إذا الأيام أغسقت " فلا تنسوا " حياة شرارة "
شعر / محمود حمد ٧٤
حياة شرارة سيرة حافلة بالعطاء الإبداعي والإنساني
جمال كريم ٧٧
د.حياة شرارة في : نصوص مزدوجة في السيرة والسيرة الذاتية
نادية غازي ٨٤
الغروب الأخير على شفق المدينة / شعر / فاروق سلوم ٩٣
بمناسبة مرور عشر سنوات على انتحار الكاتبة وأستاذة
الأدب الروسي في كلية اللغات ـ جامعة بغداد الدكتورة
حياة شرارة وابنتها مها / بلقيس شرارة ٩٧
فرادة في الإبداع وتعدّد في النوع / نبيل العطية ١٠١
من أشعل النار فيها / سميرة الوردي ١٠٤
إذا الأيام أغسقت / قراءة معد فياض ١٠٦
إذا الأيام أغسقت وإذا الأحلام تبعثرت / تركي الحمد ١١٤
إذا الأيام أغسقت / قراءة محمد الأحمد ١٢٠
إذا الأيام أغسقت : رواية هواء الخوف العراقي
مراجعة للرواية / بلقيس شرارة ١٢٤
قالوا في حياة شرارة ١٣٤
آل شرارة ١٣٧
الفهرس ١٣٨